القضاء والقدر

فى القرآن والسُّنة والفكر الإسلامى

دكتور

عبد المحسن عبد المقصود محمد سلطان

دكتوراة في الفلسفة الإسلامية

الناشر

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية . عابدين

القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

أميرة للطباعة
٥ شارع محمود الخضرى - عابدين
ت : ٣٩١٥٨١٧ محمول : ٠١٠١٤٥٦٠٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

● منذ نشأة الفكر الإسلامى، فى العصر الأول من الإسلام، برزت مشكلة من أهم المشاكل الفكرية والعقائدية، لدى المسلمين. بل لعل لها جذوراً قديمة قبل ذلك. وما زالت هذه المشكلة تشغل عقول الكثير من المسلمين وغير المسلمين حتى الآن.

● وهى تتلخَّص فى هذا السؤال: هل الإنسان مُسيَّر أم مُخَيَّر ..؟ .. وما يتبع ذلك من أسئلة أخرى. هل الإنسان هو خالق أفعاله أم أن الله هو خالقها كما هو خالق كل شئ..؟ .. وإذا كان الله هو خالق الأفعال .. فهل الإنسان هو المريد لأفعاله أم أن الله هو المريد لكل شئ بما فى ذلك أفعال الإنسان ..؟.

● ونحن .. إذا رجع أى إنسان منَّا، إلى نفسه، فسيجد أن هذه الفكرة، قد طرأت على تفكيره، فى وقت من الأوقات .. أو فى أوقات مُتعدِّدة؛ وأنه قد تَحيَّر فى الإجابة على هذا السؤال الشهير: هل الإنسان مسير أم مخيَّر .. أو – هل الإنسان مُجْبَر فى أفعاله أم أنه حرٌّ فيها ..؟ .. أو – بمعنى آخر – هل الأفعال التى يفعلها الإنسان، تكون بإرادته، أم بالإرادة الإلهية ..؟

● وفى هذه الدراسة البسيطة، سوف نحاول الإجابة على كل هذه الأسئلة،

من واقع النَّبْع الصافى .. وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. مع عرض عدد من الآراء المختلفة، التى اهتمَّتْ بالبحث فى هذه المشكلة .. والتى تمثل الفكر الإسلامى على مدى العصور السابقة.

● وقد عُرِفَتْ هذه المشكلة، باسم «القضاء والقدر»؛ أى قضاء الله وقدره وصلته بأعمال الإنسان.

● وهى مشكلة، لأن الآراء، تضاربت حولها، منذ ذلك التاريخ القديم وحتى اليوم. كلٌّ يُريدُ أن يُدْلى برأيه؛ وخاصَّةً الفِرَق الإسلامية، والفلاسفة المسلمون وغير المسلمين .. بل والإنسان العادى فى كل الأزمنة، مُنشَغِلٌ بها.

● وسوف نعرض هنا آراء الفرق الإسلامية الرئيسية الثلاثة؛ وهى: الجبرية – المعتزلة – الأشاعرة. كما سنعرض آراء الفيلسوفين الشهيرين الإسلاميين: الغزالى وابن رشد، كممثلين عن الفلاسفة الإسلاميين.

● ثم نرى – بعد ذلك – مدى توافق هذه الآراء جميعا، مع الشريعة الإسلامية الصافية، المنقَّاة من شوائب الأغراض والفِتَن؛ والمتمثِّلة فى القرآن الكريم، وسنة الرسول الأعظم محمد ﷺ.

● وهذه المشكلة، هى من المشكلات التى تثبت قصور العقل الإنسانى. وهى أيضا من المشكلات التى يمكن أن تَهُزَّ إيمان الفرد، إن لم يكن هذا الإيمان قويًّا راسخًا. ولذلك .. فقد نَهَى الرسول ﷺ عن الخَوْض فيها، فى البدايات الأول للإسلام خوفًا من الفتنة. فإذا ما رَجَعَ الإنسان إلى نصوص الدين – القرآن والسنَّة – فإننا نجد – كما فهِمَ الكثيرون ممَّنْ بحثوا هذه المشكلة – فى ظاهرها التعارض فيزداد الإنسان حيرةً وقلقًا. ولكن ..! بعد إمعان وتَفحُّص دقيق، باستعمال هذا العقل الذى وهبه الله للإنسان .. فى

صفاء . . وبكل طاقته؛ فإننا لن نجد هناك أىَّ تعارض. فهذا كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه من لَدُنْ حكيم عزيز . . بل إننا نجد تكامُلاً وترابُطًا، بين آياته وألفاظه؛ وكذلك بينه، وبين أقوال الرسول الصادق الأمين. فما أضْألَ الإنسان، بجانب خالق الإنسان . . ذى الحكمة البالغة. فهو الحكيم العليم.

● لذا . . فإن هذه الدراسة، سوف تُدَعَّم – أساسًا – بِعرض تحليلى، لما جاء فى كتاب الله العزيز، وسنة رسوله محمد ﷺ؛ فيما يتعلق بهذه المشكلة. فلعلّنا – فى النهاية – نصل إلى مفهوم سليم، يُريحُ العقل، ويطمئن القلب، ويُبعِدُ الحيرة والقلق والخوف على المصير.

* * *

المبحث الأول

آراء الفرق الإسلامية الرئيسية

الجبرية .. المعتزلة .. الأشاعرة

منذ البداية، يجب أن نعرف الآراء الأولى فى الإسلام، التى ظهرت بصدد هذه المشكلة. وهى آراء الفرق الرئيسية الإسلامية المشهورة: الجبرية .. المعتزلة .. الأشاعرة. هذا بالإضافة إلى رأى مذهب السلف، الذى يتخلّل هذا المؤلف كلـه ..

أولا: فرقة الجبرية:

بدأت تظهر آراء هذه الفرقة وأفكارها، فى عصر الصحابة؛ بل كانت تجرى على ألسنة المشركين قبل ذلك. ولكن يمكن التأكيد بأن القَوْل بالجبر، شاع فى أول العصر الأموى، وكَثُرَ حتى صار مذهبًا فى آخره [1]. وهذه الفرقة، ذات رأى حادّ وغريب جدا فى مشكلة القضاء والقدر. ولا يُعرفُ بدقّة، ما إذا كان لرأيهم هذا، جانب سياسى، أم لا. وعلى العموم، فهذا هو رأيهم الذى أعلنوه، وتمسَّكوا به والذى سنعرضه فيما يلى:

إن الجبر فى الاصطلاح الفنى فى علم الكلام؛ «هو نَفْى الفعل حقيقةً عن الإنسان وإضافته إلى الله تعالى [2]. وعلى ذلك فإن الجبرية يُنكرون الإختيار؛ ومن هنا فإنهم، «لا يفرقون بين الإنسان والجماد من حيث إنه مُجبر على

---

(١) عن: د. محمد أبو زهرة – تاريخ المذاهب الإسلامية – جـ١ ص ١٢٢ – ١٢٣ القاهرة.

(٢) د. على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام – جـ ١ ص ٢٧١ القاهرة ١٩٦٦.

أفعاله » [1]. أى أنه لا فعل للعبد أصلاً؛ « وحركاته بمنزلة حركة الجمادات ولا قدرة للعبد عليها ولا قَصْدَ ولا اختيار » [2]. فالحركة والاختيار والقدرة، كلها من الله تعالى، بطريقة مباشرة، وليس للعبد فيها أى تَدَخُّل.

يقول جهم بن صفوان، وهو على رأس هذه الفرقة: « إن الإنسان لا يقدر على شئ ولا يوصَفُ بالاستطاعة، وإنما هو مجبور فى أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار. وإنما يخلق الله الأفعال فيه كما يخلق سائر الجمادات. وتُنسبُ إليه الأفعال مجازاً كما تُنسبُ للجمادات. والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر » [3].

ويقول البغدادى، إن جهمًا - زعيم فرقة الجبرية - قال: « لا فعل ولا عمل لأحد غير الله » [4].

واستمراراً فى غلُوهم هذا، فإنهم يَنْفُونَ الإرادة الإنسانية بتاتًا؛ فلا إرادة إلاَّ إرادة الله وحده. ويقول القاضى عبد الجبار المعتزلى، وهو فى مجال نقد فرقة الجبرية: « قالت المجُبرة فى الإرادة إنها من صفات الذات، وأنه تعالى لم يزلْ مريداً لكل ما يكون من فعله وفعل غيره » [5].

هذا هو رأى الجبرية، الذى نرى فيه كثيراً من الأفكار التى لا يقبلها العقل - فهم يسوُّون بين حركة الإنسان وحركة الجمادات، كالشجر والحجر والرمال. ولا نعلم .. هل هذا غلوٌ منهم فى تقديس الله سبحانه وتعالى؛ أم أنه اتجاه

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية - مجلد ٦ - عدد ٧ - مادة الجبرية - ص ٢٨٢.

(٢) التفتازانى - شرح العقائد النسفية ص ٢٥٣ - المطبعة الأزهرية - طبعة أولى - سنة ١٩١٣م.

(٣) نقلا عن: الشهرستانى - الملل والنحل - نشرة محمد سيد الكيلانى - طبعة القاهرة - مصطفى البابى الحلبى - جـ ١ ص ٨٧ سنة ١٩٦١م.

(٤) البغدادى - الفرْق بين الفرق - القاهرة - ص ١٣٨.

(٥) القاضى عبد الجبار المعتزلى - المغنى فى أبواب التوحيد والعدل - المجلد السادس (الإراده) - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة ص ٦٥.

سياسى خطير ومُخرِّب، يدعو إلى التواكُل وانفراط عقْد الأمَّة، وضياعها . . ؟ فما دام الله هو الفاعل وهو المريد . وأن الإنسان مُجبَر فى كل تحركاته وتصرفاته؛ فإنه ليس محاسبًا على أفعاله . فَلْيَفعل إذًا كل ما يحلو له فى هذه الدنيا، ويهيم مع رغباته . . وبعد كل هذا، فَلْيكُنْ ما يكون؛ فالفعل ليس فعله أصلاً .

ثانيا : فرقة المعتزلة :

هذه الفرقة، مشهورة باستخدام العقل فى توضيح أمور الدين ورأيها فى هذه المشكلة، مضادّ لرأى فرقة الجبرية تمامًا .

فالمعتزلة يقولون : « إن الله تعالى ليس خالقًا لأفعال العبد » (١) . وهذا يعنى أن الإنسان هو الذى يخلق أفعاله . فأفعاله الاختيارية تتم، سواء « بالقدرة الحادثة فقط مباشرة أو تولدًا » (٢) . أى أن الأفعال تتم بقدرة الإنسان مباشرة؛ أو عن طريق آلة - مثلاً - يحركها الإنسان .

وهناك طريقان سلكهما المعتزلة لتأييد ما ذهبوا إليه . طريق يستند إلى الشَّرْع، وطريق يستند إلى العقل . الطريق الأول . . وهو الطريق الشرعى : « يستند أساسًا فيما يبدو على فكرة الثواب والعقاب فإنهم يَرَوْنَ أن العبد مُثاب على فعله، مُعاقَبٌ ملوم محمود . وهذا إن دلَّ على شئ، فإنما يدل على أن فعله واقع منه . إذْ لا يحسُن توبيخه والثناء عليه بما لا يقع منه كألوانه وأجسامه » (٣) .

وفى هذا الطريق الشرعى يستشهد المعتزلة ببعض الآيات . قال تعالى : ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [النحل : ١١٨] ﴿ **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ** ﴾ [الروم : ٩] وقال : ﴿ **لا ظُلْمَ الْيَوْمَ** . . . ﴾ [غافر : ١٧]

---

(١) فخر الدين الرازى - اعتقاد فرق المسلمين ص ٣٨ - مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

(٢) السنوسى - المقدمة فى أصول الدين ص ٥٩ نشرة لو سيانى بالجزائر سنة ١٩٠٨ .

(٣) الجوينى - الإرشاد - تحقيق د . محمد يوسف موسى - مكتبة الخانجى - ص ٢٠٨ القاهرة - سنة ١٩٥٠ .

وهذه الآيات تدل على أن الله سبحانه سيُعطى كل إنسان، جزاء عمله، ولن يظلمه شيئا مما اكتسبه. أى أن الجزاء يتوقف على العمل، الذى فعله الإنسان بإرادته واختياره.

أما الطريق الثاني عند المعتزلة، وهو الطريق العقلى، فقد قالوا: «إن العاقل يميز بين مقدوره وبين ما ليس بمقدوره. ويدرك تفرقةً بين حركاته الإرادِّية، وألوانه التى لا اقتدار له عليها. ووجه الفصل بين القبيلَيْن، أنه يصادف مقدوره واقعا به على حسب مقصوده ودواعيه. ولا يقع منه مالا يقع على حسب انكفافه وانصرافه. فإذا صادف الشئ واقعًا على حسب المقصود والداعية .. لم يسترِبْ فى وقوعه به. ثم لا يقعُ به إلاَّ الحدوث فَلْيكن العبد محدثًا لفعله. ولو كان فعله غير واقع به، لكان بمثابة لونه وسائر صفاته الخارجة على مقدوراته»[1] فلَوْن الإنسان وطوله وقِصَرُه، وسائر صفاته، ليست من فعل الإنسان، بل وجدها دون تدخُّل منه.

من الفقرات السابقة، نرى أن المعتزلة يُبْدونَ آراء، تقترب من أن تكون معتدلة قائمة أساسًا على فكرة الثواب والعقاب؛ وإن لم يكن فيها الإيضاح الكافى، وعدم الرد على الجبريين بطريقة عقلية – فيما يتعلق بفكرتهم عن أن الفاعل الوحيد هو الله، وأنه هو المريد لكل شئ. وكذلك فإنهم لم يقوموا بالرد على الأشاعرة، ومناقشة آرائهم فى هذا الصدد – كما سنعرضها فيما بعد.

ثالثا: فرقة الأشاعرة:

عُرِفَ عن الأشاعرة، أنهم دائمًا يتوسطون فى آرائهم بين الفرقتين الرئيسيتَيْن .. الجبرية والمعتزلة. لذا فإنهم قد «راموا أن يأتوا بقَوْلٍ وسط بين القولَيْن. فقالوا إن للإنسان كَسْبًا، وأن المكتسبَ به والكسب، مخلوقات لله تعالى»[2].

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٠٠، ٢٠١

(٢) ابن رشد – مناهج الأدلة – ص ٢٢٤ القاهرة سنة ١٩٥٥.

وهنا نجد الأشاعرة، يحاولون الرجوع بفكرتهم إلى أهل السلف، مع إدخال ما سَمُّوه وعبَّروا عنه بالكسْب. فهم يقولون: «اتفق سلف الأمة قبل ظهور البدع والأهواء، واضطرب الآراء، على أن الخالق المبدع رب العالمين ولا خالق سواه، ولا مخترع إلاَّ هو. فهذا هو مذهب أهل الحق. فالحوادث كلها حدثت بقدرة الله تعالى. ولا فرق بين ما تعلَّقَتْ قدرة العَبْد به وبين ما تفرَّد الرب بالاقتدار عليه. ويخرج من مضمون هذا الأصل، أن كل مقدور لقادر .. فالله تعالى قادر عليه، وهو مخترعه ومنشؤه» (١).

إلاَّ أن هذه الصورة، التي تعرضها فرقة الأشاعرة، لتحديد أفعال الإنسان، توحى بأن الإنسان فيها؛ «مَجْبورٌ فى قالب مختار مجبور من حيث إنه لا أَثَرَ له ألبتَّة فى أثر ما عمومًا، وإنما هو وعاء وظرف للحوادث والأعراض. يخلق الله فيه ما شاء وكيف شاء. ومختار من حيث إن عادة [سنَّة] الله لَمَّا جَرَتْ معه بدوام موالاة الفعْل عليه، لا سيَّما حال خَلْقه فيه كراهة للفعل. وإنما يمدُّه الله بالفعل فى بعض الأوقات على حسب الحاجات. وخصوصًا حال خلقه تعالى له عَزْمًا وتصميمًا على الفعل فى بعض الأوقات على حسب الحاجات. وخصوصًا حال خلقه تعالى له عَزْمًا وتصميمًا على الفعل .. صَارَ العبد بهذه العادة العجيبة، مُتمكنًا من الفعل والتَّرْك بحسب الظاهر. لا يُحسُّ إلجاءً إلى ما يجب فعله، ولا إكراهًا على ما يكره وجوده» (٢).

وبناء على التحليل السابق، الذى انتقد فيه المفكر الإسلامى «السنوسى» رأى الأشاعرة؛ فإن العبد – فى رأى الأشاعرة، ليس مسئولاً، مسئولية كاملة، عن أعماله؛ لأن الله سبحانه، وضعها فيه، كما أنه فَعَلَها بإرادته (٣).

---

(١) الجوينى – الإرشاد – ص ١٨٧.

(٢) السنوسى – المقدمة فى أصول الدين – ص ٦٣ – ٦٥.

(٣) الفقرات السابقة، فى بيان موقف الفرق الإسلامية، من مشكلة القضاء والقدر؛ مقتبسة من كتاب: «تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية» للدكتور عاطف العراقى – دار المعارف بمصر طبعة أولى سنة ١٩٧٣.

وكما رأينا .. فإن الضعف يبدو واضحًا فى رأى الأشاعرة - وإن كانوا يقولون بفكرة الكسب فهم لم يوضحوا موقف العبد من الأعمال والحوادث التى تحدث منه، والتى قالوا عنها، إنها من إرادة الله وحده. وكذلك لم يتطرَّقوا إلى الإرادة الإنسانية وفاعليَّتَها فى اختيار الأفعال وتحقيقها فى الواقع. ولو أنهم اتجهوا إلى هذه النقطة، وحاولوا تفسيرها فى إطار مذهبهم، لكانَ من الممكن أن تكون آراؤهم مقبولة. ولكن هذا لم يحدث.

ومع ذلك، فإنه يبدو من آرائهم؛ الإخلاص فى الإيمان، والسَّعْى لتنزيه الله تعالى، بإثبات قدرته اللانهائية على كل شئ. إلاَّ أن ذلك كان يحتاج إلى الكثير من التوضيح والتفسير، لبيان مسئولية الإنسان، عن أفعاله الحرة.

هذه هى آراء الفرق الرئيسية، فى مشكلة القضاء والقدر. وهى لا تخلو من الثغرات والغرائب. ولن نقف طويلاً عندها؛ فَلْنتَّجه إذًا، إلى آراء الفلاسفة، لكى نرى كيف يُحلِّلون هذه المشكلة. وسوف نقتصرُ على دراسة رأى فيلسوفَيْن كبيرَيْن منهم؛ هما الغزالى .. وابن رشد. وذلك لشهرتهما الواسعة فى الشرق والغرب، بين المسلمين وغير المسلمين؛ ولأن لكل منهما اتجاه فكرى خاص يكاد يكون متعارضًا مع الآخر.

ثم بعد ذلك، نضع جميع الآراء، فى بوتقة الدين الإسلامى الحنيف، لكى نعرف الحقيقة، ونستنتج الرأى السليم، من خلاله.

* * *

المبحث الثانى

رأى الغـزالــى

وُلدَ الغزالى بمدينة طوس، أكبر مدن خراسان، فى بلاد فارس؛ فى عام ٤٥٠ هـ - ١٠٥٩م. وتوفِّى فى عام ٥٠٥ هـ. وهو ذلك المفكر الواسع العلم والاطلاع فى عصره ولكنه كان ضد الفلاسفة، وكان يحاربهم فى آرائهم، التى كان يرى أنها تخالف الشريعة فى كثير منها. وكان لا يدرى أنه بطريقته هذه، فى مناقشة الفلاسفة، والرد على آرائهم، قد أصبح فيلسوفًا كبيرًا، ومفكرا عميقًا. فقد كان سببا هامًّا فى إثراء الفكر، فى هذه المرحلة من الزمن نتيجة مناظراته ومناقشاته، مع كل المفكرين، فى عصره .. فى كل الأمور.

أولا: رأى الغزالى فى مشكلة القضاء والقدر:

منذ البداية، ينقد الغزالى الآراء الأخرى فى هذه المشكلة، ويهاجم البعض منها بشدَّة، فيقول: «والقدريَّة ... أنكروا قضاء الله ورأوا الخير والشرَّ من أنفسهم. أرادوا بذلك تنزيه الله عن الظلم وفعل القبيح، ولكنهم ضَلُّوا إذْ نسبوا العجز إلى الله تعالى فى ضمن ذلك ولم يدروا ... والجبرية اعتمدوا على القضاء، ورأوا الخير والشرّ من الله، ولم يَروْا من أنفسهم فعلاً ... كما لم يَرَوْا من الجمادات أرادوا بذلك تنزيه الله تعالى عن العجز فضلُّوا؛ إذْ نسبوا الظلم إليه تعالى فى ضمن ذلك وأضلُّوا سُفاءَهم. فكانوا يعصون الله وينسبون إلى الله. ويبرئون أنفسهم عن الذم واللَّوْم، كالشيطان حيث قال: ﴿ **فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [1] [الأعراف: ١٦]

ويستمر الغزالى فى هجومه العنيف على الجبرية، فيقول: «فينبغى للباحث معهم أن يضربهم ويمزِّق ثيابهم وعمائمهم، ويخدش وجوههم، وينتفُ أشعارهم

---

(١) الغزالى - الأربعين فى أصول الدين ص ١٩ - مكتبة الجندى - الحسين - مصر سنة ١٩٦٥.

وشواربهم ولحاهم. ويعتذر بما اعتذز به هؤلاء السفهاء فى سائر أفعالهم القبيحة الصادرة عنهم» (١).

ويستمر الغزالى فى هجومه، مُتَّجهًا إلى المعتزلة، فيقول عنهم: «والمعتزلة أضافوا الشرَّ فقط إلى أنفسهم. وأثبتوا لأنفسهم الاختيار الكلى، تحرزًا من نسبة القُبْح والظلم إلى الله؛ ولكن نسبوا إلى الله العجز من ضمن ذلك ولم يدروا» (٢).

ويستمر فيقول: «وأما أهل السنة والجماعة، فتوسَّطوا بينهم (أى بين الجبرية والمعتزلة) فلم ينفوا الاختيار عن أنفسهم بالكلية ولم ينفوا القضاء والقدر عن الله تعالى بالكلية، بل قالوا: أفعال العباد من الله من وجه، ومن العبد من وجه، وللعبد اختيار فى إيجاد أفعاله» (٣).

ولعل هذا الرأى الأخير الذى عرضه الغزالى، هو الذى مال إليه. وسنرى ذلك فيما بعد؛ وهو رأى الأشاعرة – كما عرفنا من قبل.

بعد أن عَرَضَ الغزالى، الآراء المختلفة الرئيسية، مُعلِّقًا عليها؛ يَعْرِضُ رأيه هو تفصيلاً، فيقول: «إعلم أن قضاء الله على أربعة أوجه: قضاء الطاعات – وقضاء المعاصى – وقضاء النِّعَم – وقضاء الشدائد. والمذهب المستقيم فى ذلك (أى الرأى السليم فى نظره)، إذا قُضِىَ للعبد الطاعة، فعليه أن يستقبله بالجهد والإخلاص حتى يكرمه الله بالتوفيق والهداية، لقوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، يعنى الذين جاهدوا فى طاعتنا وفى ديننا لنوفقنَّهم لذلك ... وإذا قضى (عليه) المعصية، فعليه أن يستقبله بالاستغفار والتوبة والندامةْ من صميم الفؤاد، لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وإذا قضى [له] النعمة، فعليه أن يستقبله بالشكر

(١) المصدر السابق.

(٢) المرجع السابق ص ١٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٢.

والسخاء حتى يكرمه بالزيادة، لقوله تعالى ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]. وإذا قضى الشدَّة، فعليه أن يستقبله بالصبر والرضا حتى يعطيه الكرامة فى الدار الآخرة. لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وقال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] (١).

ويعرض الغزالى رأيه فى مكان آخر، فيقول على لسان علاء الدين فى شرحه للمصابيح: «والمذاهب الحق، هو أن المؤثر مجموع القدرتين، قدرة الله، وقدرة العباد. فالأفعال الصادرة عن العباد، كلها بقضاء الله وقدره .. ولكن للعباد اختيار. فالتقدير من الله والكَسْب من العباد. وهذا المذهب وسط بين الجبر والقَدر .. وعليه أهل السنة والجماعة» (٢).

وكما سبق القول، فإن هذا هو رأى الأشاعرة عمومًا، والذى كان الغزالى يميل إليه دائما، فهو أشعرى بارز.

وبعد أن بَيَّن الغزالى مفهُوم القضاء والقدر، فيما يتعلق بالإنسان؛ فإنه بيَّن مفهومه فيما يتعلق بكل المخلوقات؛ فيقول إنها: «تدبير رب الأرباب، ومُسبِّبُ الأسباب. أصل وَضْعَ الأسباب لتتوجَّه إلى المسببات، حُكمُه. ونصْبه الأسباب الكلية الثابتة المستقرَّة التى لا تزول ولا تحُول كالأرض والسموات السَّبْع والكواكب والأفلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التي لا تتغير ولا تنْعدم إلي أن يبلغ الكتاب أجله، قضاؤُه - كما قال: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢]. وتوجيهه هذه الأسباب بحركاتها المناسبة المحدودة المقدَّرة المحسوبة إلي المسببات الحادثة ... لحظةً بعد لحظة، قدرُه، فالحكم هو التدبير الأولى (هكذا - ولعلها - الأزلى)» (٣) ويستمر الغزالى، فى هذا الاتجاه، إلى أن يقول: «ولذلك لا يخرج شئ عن قضائه وقدره» ونتفق مع

(١) المرجع السابق ص ٢٢.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٣.
(٣) المرجع السابق ص ٢٤.

الغزالى، فى أن كل هذه الأشياء الكونية، قضاءً جبريا أو ما يسمى «بالجبرية الكونية».

ويزداد اقتراب الغزالى من الدخول فى دائرة فرقة الجبرية عندما يقول: «كل حادث فمُخْتَرع بقدرته. وكل مُختَرع بالقدرة مُحتاج إلى إرادة تُصرِّف القدرة إلى المقدور، وتُخصِّصُها به. فكل مقدور مراد، وكل حادث مقدور، فكل حادث مراد. والشر والكفر والمعصية حوادث، فهى إذًا لا محالة مرادة. (هى مرادة من الله كحوادث، لا كمعاصى وشرور).

فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فهذا مذهب السلف الصالحين، ومُعْتَقَدُ أهل السنَّة أجمعين. وقد قامت عليه البراهين» [١].

ويدعم الغزالى رأيه السابق .. من أن كل الحوادث مُرادةً ومُخترعةً من الله تعالى بقدرته؛ وبما أنَّه يَعتَبِرُ الشرور والمعاصى من ضمن الحوادث؛ فَيُبرِّر خلق الله للشرور والمعاصى بقوله: «أما المعتزلة فإنهم يقولون إن المعاصى كلها والشرور حادثة بغير إرادته، بل هو كارهٌ لها [أى الله سبحانه] ومعلوم أن أكثر ما يجرى فى العالم، المعاصى، فإذا ما يكرهه أكثر مما يُريده. فهو إلى العجز والقصور أقرب بزعمهم – تعالى رب العالمين عن قَوْل الظالمين. فإن قيل .. فكيف يَأْمُر بما لا يُريد، وكيف يُريد شيئا وينهى عنه، وكيف يريد الفجور والمعاصى والظلم والقبيح، ومُريد القبيح سفيه. قلنا: إذا كشفنا عن القبيح والحَسَن، وبَيَّنا أن ذلك، يرجع إلى موافقه الأغراض ومخالفتها، وهو سبحانه مُنَزَّه عن الأغراض، فاندفعت هذه الإشكالات» [٢].

(إذًا كان من المفروض أن يقول، أن هذه الشرور والمعاصى مخلوقة ومرادة من الله – كحوادث وليست كشرور أو معاصى).

---

(١) الغزالى – الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٥٨ – مطبعة صبيح بالأزهر – القاهرة سنة ١٩٦٢م.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٨.

(ثم تحولت إلى شرور ومعاصى حسب أغراض الناس).

ومعنى هذا، أن الذى يجعل هذه الحوادث، شروراً ومعاصى، هو أغراض البشر – التى تُوجِّه هذه الحوادث .. فتجعل منها شروراً ومعاصي. أمَّا الله سبحانه، فإنه يخلقها كحوادث مُنزَّهةً عن الأغراض. ومن هذا نستنتج أن الله تعالى، لا يخلق الشرور والآثام والمعاصى؛ وإن كان يخلقها كحوادث .. يحوِّلها الإنسان بإرادته الحرة التى وهبها الله له، إلى شرور ومعاصى وهنا لا تكون المعاصى والشرور، مُرادةً من الله، كما قال الغزالى؛ بل مرادةً من الناس، حسب أغراضهم وأهوائهم.

ولذلك .. فإن مُغالاة الغزالى فى هَذَا الاتجاه، أَدَّتْ به فى النهاية، إلى نَفْى السببيَّة. فالغزالى يقول بأن الله، هو الفاعل على الحقيقة لكل شئ فى الوجود فـ « الاقتران بين ما يُعتَقَدُ فى العادة سبباً وما يُعتَقَدُ مُسبَّباً، ليس ضرورياً عندنا. بل كل شيئين .. ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر، ولا نفيه مُتضمَّن لنَفْى الآخر. فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر مثل: الرى والشرب، والشبع والأكل والاحتراق ولقاء النار والنور وطلوع الشمس والموت وجزّ الرقبة والشفاء وشرب الدواء وإسهال البطن واستعمال المسهِّل .. وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف وأن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخَلْقها على التَّساوق، لا لكونه ضرورياً فى نفسه، غير قابل للْفَوْت .. بل لتقدير وفى المقدور: خَلْق الشبع دون الأكل. وخَلْق الموت دون جزّ الرقبة وهلم جرا إلى جميع المقترنات » [1] والغزالى يقصد، أن كل حدث يحدث فى الكون؛ هو من فعل الله المباشر. لذلك؛ فإنه من الممكن أن تحدث أشياء

---

(١) ابن رشد – تهافت التهافت – تحقيق سليمان دنيا – ص ٧٧٧ – دار المعارف – بمصر سنة ١٩٦٥م.

مخالفةً لقانون الأسباب والمسبَّبات. ذلك لأن الله سبحانه، هو الذى وضع الخواص فى الأشياء، التى تظهر فى صورة أسباب ومسببات لذا فإن إرادته وقدرته سبحانه، تستطيع أن تنزع هذه الخواص وَقْتما شاء.

والغزالى يذكر مثالاً على ذلك، وهو احتراق القطن عند ملاقاة النار؛ فيقول: «إنَّا نُجوِّز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق. ونجوِّز حدوث انقلاب القطن رماداً مُحترقًا دون ملاقاة النار. وهم ينكرون جوازه» [١]. وهو يقصد الفلاسفة الذين كان يهاجمهم فى فكرة السببية، مثل الفارابى وابن سينا.

ويطبق الغزالى - فى النهاية - هذا المفهُوم على الإنسان؛ رغم اختلاف طبيعة الإنسان عن باقى المخلوقات؛ لكنه يؤكد أن فعل العَبْد، وإن كان مُكْتَسَبًا من العبْد؛ إلا أنه - فى نفس الوقت - مُرادٌ لله تعالى. ولعلَّ فى هذا نوعًا من التناقض الواضح. فنجده يقول: «إن فعل العَبْد وإن كان كَسْبًا للعبد فلا يخرج عن كونه مُراداً لله سبحانه. فلا يجرى فى المُلْك والملكوت طرفة عين ولا لفْتَة خاطر ولا فَلْتَة ناظر إلاَّ بقضاء الله وقُدرته، وبإرادته ومشيئته ومنه الخير والشر. والنفع والضرّ. والإسلام والكفر. والعرفان والنّكْر والفوز والخسران. والغواية والرُّشْد. والطاعة والعصيان. والشِّرْك والإيمان. لا رادَّ لقضائه ولا مُعَقِّبَ لحكمه. يُضل من يشاء ويهدى من يشاء لا يُسأَلُ عمَّا يفعل وهم يُسْأَلون. ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة ... ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقوله عز وجل: ﴿ **أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾» [الرعد: ٣١] [٢].

ورغم إيماننا القوى بهذه المعتقدات؛ إلاَّ أننا نجد كثيراً من عامَّة المسلمين يؤمنون بها دون فهمها وتدبُّر معانيها الحقيقية، ومعرفة جذورها. وهذه مهمتنا فى هذه الدراسة .. أن نوضح، كيف نؤمن بهذه المعتقدات عن فهم ووضوح فى

---

(١) الغزالى - تهافت الفلاسفة - ص ٦٧ - المطبعة الإعلامية بمصر - ١٣٠٣ هـ.

(٢) الغزالى - إحياء علوم الدين - جـ ١ ص ١١٦، ١١٧ - مطبعة مصطفى الحلبى بمصر سنة ١٩٣٩م.

الرؤية، ومعرفة الأصول الحقيقية للإيمان بها؛ فتطمئن قلوبنا، ويبتعد عنها أى شك شيطانى، يمكن أن يأتى إليها، من أى جانب. لذا .. فإنه سوف يأتى تحليل لكل هذه الأفكار بطريقة موسَّعَة، فيما بعد.

هذا هو رأى الغزالى، فى مشكلة القضاء والقدر. ولم أحاول مناقشته أو التعليق عليه أو تحليله، أثناء عرضه؛ إلا من لمحات ضرورية خاطفة تساعد على فهمه بوضوح. كما يمكن الإشارة هنا؛ إلى أن هناك أفكاراً مشابهةً لأفكار الغزالى السابقة، قد ظهرت عند بعض الفلاسفة المحدثين. فقد نَفَى كلٌّ من الفيلسوفيْن - الفرنسى «مالْبرانْسن»، الذى أتى بعد الغزالى بحوالى ٥٨٠ عامًا، والإنجليزى «ديفيدهيوم»، الذى أتى بعد مالبرانسن بحوالى سبعين عامًا؛ الارتباط الضرورى بين ما يسمَّى سببا وما يسمى مُسبَّبًا: «إن مالبرانسن يقول بأن السبب الحقيقى الذى يوجد الشئ به، هو الله وحده [وهو بذلك ينفى الإرادة عن أى مخلوق ولا يجعلها إلا لله وحده]؛ فإن الحقيقى فى رأيه، هو ما يرى العقل ارتباطًا ضروريًا بينه وبين ما ينتج عنه. وهو مالا يراه العقل إلاَّ لله الذى يكون عن إرادته وحدها كل شئ. ومن ثَمَّ فإن الإنسان حين يُحرِّكُ ذراعَيْه مثلاً، يفعل هذا بقوة ليست فى الحق منه» [1].

ثانيا: مناقشة رأى الغزالى وتحليله ..

إذا ألْقَيْنا نظرة شاملة، على آراء الغزالى السابقة، فى مشكلة القضاء والقدر، ودَقَّقْنا الملاحظة فيها؛ فإننا سنجد التناقض واضحًا وصريحًا ... وأيضا سنجد فيها التَردُّد، فَنَجْده يميل مرةً إلى هنا، ومرةً إلى هناك. وحينما نحاول الكشف عن ذلك؛ فإننا نجده يقول: إن أفعال الإنسان، يمكن أن تكون مُكتسبةً له ... وفى نفس الوقت مرادةً لله تعالى كيف إذًا يكون ذلك؟ .. وماذا يبقى للإنسان، الذى خلق الله له عقلاً، وأعطاه إرادة وحرية ..؟ كيف يستخدم

(١) محمد يوسف موسى - بين الدين والفلسفة - ص ١٩٤ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩م

الإنســان هذه المعطيــات التى أعطاها إيَّاهُ الله . .؟ إنه من الممكن الاتفــاق مع الغزالى، على أن تكون الأفعال مخلوقة لله – ولكن – من جانب آخر – تكون مرادةً من الإنسان.

فالأفعال موجودة أمامى، على هيئة مخلوقات صامتة . . موجودات . . سخَّرها الله للإنسان . . كالنار وحرارتها، والشمس وضوؤها، والمياه والأرض، والمعادن والنباتات . . . إلخ ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان: ٢٠]

فحينئذ . . لا بُدَّ أن تعمل الإرادة الإنسانية . . التى يُحرِّكُها العقل، لتحقِّق إرادة الله العظمى، حين أراد سبحانه، أن يكون هناك إنسان، خليفة له فى الأرض. فيه خيوط من بعض صفاته تعالى. ومن هذه الخيوط . . الإرادة والعقل. فتختار الإرادة ما تريد من هذه الأشياء، وتُركِّبها حسب أغراضها، وتكوِّنَ منها أفعالاً . . إمَّا خيرة وإمَّا شرِّيرَة.

فهى إذًا . . إرادة الله العظْمَى، فوق إرادة الإنسان الصغرى . . التى تعمل فى مجالها الضيِّق المحدود، بإذن من الله تعالى. فتختار الأفعال المُسْتَطَاعَة – ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا** ﴾[البقرة: ٢٨٦] ومن خلال هذا الاختيار، تنتج الأفعال الخيِّرة والأفعال الشرِّيرَة. وتبرز أيضا . . نظريَّة الثواب والعقاب . . والجنة والنار . . والآخرة. فهذه كلها أمور ارتبطت بالإرادة الحرَّة للإنسان. ولم يذكر الغزالى، أى شئ، عن هذا الارتباط الضرورى، بين هذه الأمور، وبين القضاء والقدر.

وبعد هذا . . فإننا إذا ألْقَيْنا الضوء، على هذه المفاهيم، التى ذكرها الغزالى، والتى أجمع عليها سلف الأمَّة من الصالحين، والتى هى مُعْتَقَدُ أهل السنَّة والجماعة أجمعين؛ والتى يدل عليها قول الأمَّة قاطبة «ما شاء الله كان وما لم يَشَأْ لم يكن»، وقوله تعالى ﴿ **أن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾؛ وأنه سبحانه

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [النحل: ٩٣] وأنه لا فاعل إلاَّ الله تعالى؛ فهى كلها مفاهيم صحيحة، ولا أحد يعترض عليها - كما سبق القول؛ لكن . . ! . . على أساس: أنَّ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] و﴿ . . . كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]. وكذلك . . على أساس، أن ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]. لأننا لو ذكرنا هذه المفاهيم وجدها . . وسَكَتْنا؛ فإن هذه العبارات، بصورتها هذه، تدل تمامًا على الإجبار؛ ويحتار الناس فى فَهْمها. فكيف تكون الأمور محدَّدَة هكذا بإرادة الله ومشيئته، ثم بعد ذلك . . نُحاسَبُ على أفعالنا . .؟ . . وهذا ما يؤدى إلى الخوف على المصير، والقلق والشك، وعدم اليقين، وزعزعة الإيمان.

وهنا يظهر سؤال: كيف نوفِّق بين هذَيْن المعنَيَيْن، اللذين يكاد أن يكونان متضادين فى ظاهرهما . .؟ . . معنى الجبر فى المفاهيم الأولى . . ومعنى المسؤولية والاختيار فى المفاهيم الثانية . .؟ لا يتحقق ذلك . . ولا نصل إلي إجابة، إلاَّ بالنفاذ إلى أعماق هذه المفاهيم، مصحوبًا بإيمان عميق، ويقين كامل . . بالعدالة الإلهية . . وبالرحمة واللطف الإلهيَيْن؛ حتى تتبين الحقيقة الكبرى . . التى لا شك فيها، للناس، عامَّتهم وخاصَّتهم؛ ويزول الالتباس، وتستريح القلوب والعقول، ويزول الشك والقلق، ويطمئن الإنسان على المصير . . ويُؤْمِنُ بهذه المفاهيم كلها، عن فهم ووَعْى.

فالقَوْل، بأنه لا فاعل إلاَّ الله، لا بُدَّ أن يتوافق، مع القَوْل، بأن ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ و﴿ . . . كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ ولا بُدَّ أن نبيِّن كيفيَّة هذا التوافق. فكل فعْل أو حَدَث يحدث فى الكون، فهو من فعل الله تعالى. حتى الإنسان . . فإن أى حركة أو فعل منه . . فهو من الله لأن الإنسان نفسه من صنع الله؛ فلا يستطيع أن يرفع يده أو رِجْلَه . . أو حتى يطرف بعينه أو يُفكر بعقله . . إلاَّ بقدرة من الله تعالى، يمدُّه بها. ومن هنا يتحقَّق القَوْل بأنه لا

فاعل إلاَّ الله سبحانه، ناهيك عن الحوادث الأخرى، التى تحدث فى الطبيعة، فكلها من فعل الله.

إلاَّ أن الإنسان – وإن كانت كل أفعاله من الله .. يمدُّه بها، فإن هناك خيطًا هامًّا .. هو «الإرادة الإنسانية». فهى – وإن كانت من عطاء الله .. وضمن ما وَهَبَهُ الله للإنسان عندما خَلَقَه؛ لكنه سبحانه، جَعَلَ لها صفات تَتَميَّزُ بها؛ هى الاختيار والحرية فهى تختار الأعمال والحوادث والأشياء، التى خلقها الله وسخرها للإنسان – يوجِّهُها بإرادته وبهذا الخيط الدقيق .. الذى هو الإرادة الإنسانية، تبرز أركانًا هامَّة، من قدرة الله ومشيئته وقضائه وقدره. فقد قَضَى وقَدَّر، أن تكون هناك دار آخرة .. وجنة ونار، وأشرار يدخلون النار، وأخيار يدخلون الجنة .. بناءً على أعمال فعلوها، نتيجة ما أعطاهم الله، من إرادة وعقل .. وقوى مختلفة. إذًا .. الأفعال والأحداث أو الحوادث من الله، لكن .. اكتسابُها وتوجيهها نحو الخير أو الشر، فهو من الإنسان.

فهل ينفى ذلك القول – أى أنه «لا فاعل إلا الله» – [illegible] وجود حرية الإنسان مُتمثلةً فى إرادته الحرة، واختياره لكل أعماله ..؟.

وهكذا – بعد هذا التوضيح – نتفق مع عامَّة المسلمين وخاصتهم، من أنه لا فاعل إلا الله، وفى نفس الوقت .. لا إهدار لإرادة الإنسان واختياره ومسؤوليتة عن كل أعماله. فهل هناك إجبار على الفعْل ..؟ أو هل هنا ظلم ..؟ أو هل هناك خوف على المصير ..؟ اللهم لا.

وهنا ينمحى أى نوع من أنواع الشك فى العدالة الإلهية. وتعالى الله علوًّا كبيرًا عن هذا كله ..

أما قَوْل «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»؛ فهو حق وواضح أيضا فقد شاء أن يخلق هذا الكون، بما فيه من مخلوقات وشاء أن يكون ضمن مخلوقاته .. إنسان، له عقل وروح وإرادة حرَّة، وجسم يتحرك به فى هذا الكون. شاء الله

ذلك، ولا رادَّ لمشيئته. كما شاء أن يعبده كل شئ فى الوجود .. ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وعلى قمته الإنسان، الذى أراد منه أن يسير فى طريق الخير والسلام. كما أنه - من جانب آخر - لم يشأ سبحانه أن يجعلنا ملائكة مثلاً، أو حيوانات غير ناطقة أو نباتات. أو جمادات .. أو هواء، أو أى شئ آخر غير الإنسان. كما أنه لم يشأ أن يخلقنا بدون عقل يستطيع أن يفكر ويعقل ويُدبِّر ويُريد، ومعه جسم يتحرك تبعًا لهذه الإرادة العاقلة. لم يشأ أن يجعلنا غير ذلك. «فواهب الوجود يَهَبُ الأنواع والأشخاص وجودها على ما هى عليه؛ ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعُه .. ومن تلك الأنواع، الإنسان، ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات، أن يكون مفكرًا مختارًا فى عمله على مُقتضَى فكره. فوجوده الموهوب مُستَتْبَعٌ لمميزاته هذه، ولو سُلبَ شئ منها، لكان إمَّا مَلَكًا أو حيوانًا آخر .. والفرض أنه الإنسان» [1]. كذلك .. لم يشأ - مثلاً - أن يجعل آدم وحده فى هذا الوجود من نوع الإنسان، بل شاء أن يكون له ذرِّيَة .. تتكاثر حتى يوم الدين. هذا قضاء الله وقدره. ما شاء الله كان .. وما لم يَشَأْ لم يكن.

أما القَوْل بانه سبحانه ﴿ **يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ فإننا لأول وَهْلة، قد نظن أن هذه العملية عشوائية .. تتم دون حساب .. وحاشا لله أن يكون ذلك فإننا إذا عرفنا، من هو الذى يشاء الله أن يُضلَّه، ومن هو الذى يشاء أن يَهديَه، ذهب عنا القلق الذى ينتابنا، عندما نقر أمثل هذه الآيات الكريمة .. التى قد يتبادر إلى أذهاننا، عند قراءتها؛ أننا لا نعرف ما إذا كنَّا من الذين سيهديهم الله أم من الذين سيضلُّهم. أو - بمعنى آخر - لا نعرف ما إذا كنَّا من المهتدين أو من المُضَلِّين. أو - بمعنى ثالث - أننا لا نعرف، من هو الذى

(١) الشيخ محمد عبده - رسالة التوحيد - ص ٤٩ - مطبعة صبيح - الأزهر - القاهرة - ١٩٦٥م.

سيختاره الله، لتَقَعَ عليه مشيئتُه بأن يكون من المُهتدين، ومن هو الذى ستقع عليه مشيئتُه، بأن يكون من الضالِّين. فترتعد قلوبنا من الخوف على المصير، لأننا لا ندرى .. أين سيكون حظّنا. من المهتدين، أم من الضالِّين ..؟ وكأنَّ هذه العملية، تتم بطريقة عشوائية. لكن الأمر ليس كذلك أبدًا، ولا يمكن أن يكون ذلك فى حق الله تعالى؛ لأنه لو حدث ذلك، يكون ظلمًا. وحاشا لله من ذلك – وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. لكنَّنا لا بُدَّ أن نتدبَّر ونفكر ونُحلِّل الأمر.

فمن هو الذى يشاء الله تعالى أن يُضلَّه، وَمَنْ هو الذى يشاء أن يُهْدِيَه ..؟ الذى شاء الله أن يُضلَّه، هو الذى سار فى طريق الشرِّ والعصيان .. وتمادَى فيه رغم نصائح الأنبياء والصالحين. فمشيئة الله تقضى على هذا الشخص، أن يظلَّ فى الضلال ويكون مصيره النار والعذاب. ومن يشاء أن يهدَيه .. هو الذى سار ويسير فى طريق الخير والسلام. فمشيئة الله سبحانه، تقضى لهذا الشخص، بأن يزيده هُدَى، ويهديَه بهداه، أى لا يضنُّ عليه بهداه ورحمته ويكون مصيره الجنة والنجاة، لأن سار فى الطريق السليم. وهذا كله هو ما يشاؤه الله. يشاء الخير لمَنْ سارَ فى طريق الخير؛ ويشاء الضلال والعذاب، لمَنْ سارَ .. وأصرَّ على السَّيْر فى طريق الشر والفساد. ﴿ **يُضلُّ من يشاءُ ويَهْدِي مَن يَشاءُ** ﴾. ولا يشاء الله إلاَّ ما فيه العدل والحق. ليس أى فرد يضلُّه الله .. وليس أى فرد يَهْدِيه الله؛ فهو سبحانه لا يشاء إلاَّ العَدْل، فهو الحَكَمُ العدَل. ولذلك فإنه لا يشاء الضلال إلاَّ للضالِّين المكذبين المفسدين المصرِّين على أخطائهم وكذلك لا يشاء الهُدى إلاَّ للصالحين المهتدين المؤمنين الصادقين.

هذا ما يشاؤه الله .. وهو ما قرَّره وقدَّره منذ الأزل ﴿ ... **ويُضلُّ اللَّهُ الظَّالمين ويَفْعَلُ اللَّهُ مَا يشاءُ** ﴾ [ابراهيم: ٢٧]. ﴿ **إنَّ الَّذين لا يُؤْمنُون بآيَات اللَّه لا يهْديهمُ اللَّهُ ولهُمْ عذَابٌ أليمٌ** ﴾ [النحل: ١٠٤]. ﴿ ... **واللَّهُ لا يهْدي الْقوْم**

الظَّالمين ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُون ...** ﴾ [التوبة: ١١٥].

ونعود إلى الغزالى لكى نُناقِشَهُ فيما أسماه «القضاءات الأربعة» السابق ذكرها [١]. وهى الطاعات والمعاصى والنِعَم والشدائد؛ فإننا لن نجد فى مفهوم الغزالى، إلاَّ أن كل شئ، قد رجع فى النهاية؛ إلى نوع من الجبرية. فعندما ننظر بفكرنا ونتدبر فإنه يمكن القَوْل، أن نَوعَيْن فقط من هذه الأمور الأربعة هما حقًّا قضاءً إجباريًّا من الله .. وهما الشدائد والنِّعَم، لأنه ليس للإنسان فيهما اكتساب أمَّا الطاعات والمعاصى .. فإذا قلنا إنها من قضاء الله وقَدَره – دون أن نُلْحِقَ ذلك بالعلم الإلهى السابق – ظهر فيها معنى الجبرية. وذلك لأننا لم نبيِّن أنها «قضاء اختيارى»، بمعنى أنه كَسْبٌ من الإنسان، داخل دائرة القضاء الإلهى الأعظم، الذى قضى فيه، بأن يكون للإنسان إرادة حرَّة، يكتسبُ بها الطاعات والمعاصى. فيكون بذلك، هذا النوع من القضاء والقدَر، بمعنى العلم الإلهى السابق .. بما سوف يكتسبه كل إنسان.

فحين يقول الغزالى .. إن قضاء الطاعات، إذا كان الإنسان فى الطريق المستقيم .. فإنه يستقبله بالجهد والإخلاص. فكيف إذًا .. يكون مقضيًّا على إنسان أن يفعل كذا، ثم بعد ذلك، تكون مهمته فقط، إستقبال هذه الطاعة بالجهد ..؟ ثم إذا قضي بالمعاصى. فعليه أن يستقبلها بالاستغفار والدعاء. ومعنى ذلك أن يفعل الإنسان المعاصى، ثم يقول .. إنه مَقْضِيٌّ علىَّ بها .. وما علىَّ إلاَّ أن أستغفر الله عند حدوثها .. كما قال الكافرون من قبل. ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُون** ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. إن جوهر هذا الرأى للغزالى، هو

---

(١) ص ١٤ من هذا الكتيب.

سَلْب الأعمال عن الإنسان، وَجَعْله فقط .. متابعًا لما حُكِمَ به عليه من الله سبحانه مُسبَّقًا؛ وبالتالى سَلْب المسؤولية. ولكن الله تعالى يقول: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ [المدثر: ٣٨]. أى تكون كل نفس «معتقلة بعملها يوم القيامة. قاله ابن عباس وغيره»[١]. وهذا يعنى أن مصير كل إنسان، مرهون بما اكتسبه من أعمال فى حياته. فإن كان ما اكتسبه خيراً .. كان مصيره الجنة، وإن كان غير ذلك .. فمصيره إلى النار.

وأما فكرة الجهد والإخلاص من الإنسان عند الطاعات، فهى واردة ولا أحد ينكرها وهى من النصائح الإلهية؛ ولكنها ليست فقط، لاستقبال الطاعات، بل إنها للوصول إلى الطاعات. وهى حَصَّن من الله سبحانه لعباده، كما قال: ﴿ **وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ** ﴾ [العنكبوت: ٦]. وذلك كما يعلمه الله تعالى، من قصور العقل والقوى الإنسانية، وسط الانغماس فى متاهات المادَّة والمشاغل الدنيوية. فقد أراد الله بتلك النصائح، هداية الإنسان إذًا لأنه لو كانت الأفعال مَقْضىٌّ بها علىَّ .. قضاءً جبريًّا، فلماذا إذًا تكون هذه النصائح ..؟ ولماذا يكون الرسُل صلوات الله عليهم وسلامه ..؟ ولماذا تكون أوامر الله ونواهيه ..؟.

وأما فكرة الاستغفار والتوبة، التى يقول الغزالى، إنها الطريق المستقيم للإنسان، ليقابل بها المعاصى؛ فإن الاستغفار والتوبة، ليسا إلاَّ اعتذاراً إلى الله خالقنا، عندما ينسى الإنسان ربه .. عندما ينسى واجبه فى الحياة، وسط متاهات الحياة. فعند ذلك، يكون الاستغفار والتوبة والنَّدَم، هى الأحوال التى يناجى بها الإنسان ربَّه، ليعتذر عمَّا فعله من أخطاء، وأنه لن يعود إليها أبداً، لأنها من فعله واكتسابه، وأنه مسؤول عنها. وشتَّانَ ما بين ذلك، وبين أن أنتظر المعاصى .. ثم أقول أنها مقضىٌّ بها علىَّ، ثم أقابلها بالاستغفار دون أن أجاهد منذ البداية للابتعاد عنها.

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٤٤٧.

إننا لا نشكُّ فى اتجاه الغزالى السليم، إلاَّ أنه لم يوضح الصلة بين قضاء الله سبحانه والعلم الإلهى. وسوف نلقى مزيداً من الضوء على هذه النقطة بعد قليل. كما لم يوضح العلاقة بين القضاء والقدر وأعمال الإنسان الحرَّة. فَتَرِكَ هذه النقاط فى غموض، وهى من أهم الأمور التى يلتبسُ فهمها على الناس.

وهناك تساؤل، يتصل بمعنى اللطف الإلهى والدعاء الإنسانى، الذى وَجَّهَنا الله إليه سبحانه. فنتساءَلُ عمَّا إذا كان هذا الدعاء والاستجابة له من الله – حسب الشروط التى حددها الله تعالى – يُغيِّرُ ممَّا هو مدوَّن باللوح المحفوظ، والذى يَعْلَمُه الله بأنه سيحدث من المخلوقات .. أم أن الله تعالى يغيِّرُ فقط، فى الأمور المقضىُّ بها منه قضاءً جبريًّا .. مثل مدّ الأجل .. أو تخفيف المصائب .. إلخ ..؟ أم أن هذا يدخل فى دائرة العلم الإلهى الأزلى السابق ..؟.

هذه إذاً .. لمحات فى مناقشة وتحليل رأى الغزالى، فى مشكلة القضاء والقدر .. لعلها تكون قد أَلْقَتْ شيئًا من الضوء على مفهوم هذه المشكلة .. وشيئًا من الاطمئنان فى النفوس.

*   *   *

المبحث الثالث

رأى ابن رشـــــد

مقدمة : وُلِدَ ابن رشد فى مدينة قرطبة بالأندلس عام ٥٤٠ هـ - ١١٤٩م. أى بعد ميلاد الغزالى بتسعين عامًا - وبعد وفاته بخمس وثلاثين عامًا. وتوفّى فى أول ديسمبر عام ١١٩٨م.

وقد حاول ابن رشد - وهو فيلسوف العقل، الذى ذاع صيته فى الغرب قبل الشرق - حاول أن يبدى رأيًا مختلفًا، عن آراء الفرق الرئيسية الإسلامية .. وعن رأى الغزالى السابق عرضه؛ فى مشكلة القضاء والقدر. لكن - ابن رشد - مع ذلك - حاول أن يرتبط ارتباطًا كبيرًا بالجانب الشرعى المباشر عند بحثه هذه المشكلة، إلاّ أنه لم يستطع أن يخفى اتجاهه الفلسفى العقلى، كما سيتبين فى السطور والأجزاء التالية .

أولا : رأى ابن رشـــــد :

يقول ابن رشد فى كتابه «الكشف عن مناهج الأدلّة» : «إن هذه المسألة [أى مسألة القضاء والقدر] من أعوص المسائل الشرعية .. [سواء فى الكتاب الذى هو القرآن، أو فى السنَّة النبوية] .. أما الكتاب، فإنه تَلْقَى فيه آيات كثيرة تدل بعمومها على أن كل شئ بقَدَر، وأنَّ الإنسان مجبور على أفعاله، وتلقى فيه آيات كثيرة تدل على أن للإنسان اكتسابًا بفعله، وأنه ليس مجبورًا على أفعاله» [١]. ويقول أنه «ربما ظهر فى الآية الواحدة التعارض فى هذا المعنى، مثل قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصابَتْكُم مُّصيبةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ**

---

(١) ابن رشد - الكشف عن مناهج الأدلّة - ص ١٣٤ - المكتبة المحمودية بمصر - طبعة ثانية ١٩٣٥م.

أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]» (١). ويذكر الأحاديث النبوية فى هذا المجال أيضا، ليستشهد بها على هذا التعارض، فيقول: «وكذلك تلقى الأحاديث فى هذا أيضا متعارضة مثل قوله عليه الصلاة والسلام. (خلقت هؤلاء للجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون، وخَلَقْتُ هؤلاء للنار وبأعمال أهل النار يعملون)» (٢).

ويحاول ابن رشد، تفسير هذا التعارض الموجود فى الآيات القرآنية، وفى الأحاديث النبوية، بطريقة التأويل.

وابن رشد، لم يأخذ بهذا الجانب أو ذاك؛ ولكنه قال بأن هذا التعارض فى النصوص الشرعية، ما هو إلاَّ تعارض ظاهرى فقط. وعلى هذا، فقد نَقَدَ آراء المعتزلة والجبرية، كما انتقدها الغزالى من قَبْل. كما انتقد آراء الغزالي فى سياق ذلك.

إذًا.. فما هو رأى ابن رشد فى هذه المشكلة؟ إنه يأتى بحل وسط أيضا ولكنه ليس بحل توفيقى مثل رأى الأشاعرة، فهو لا يوافق على رأيهم فى هذه المشكلة، أيضا. يقول ابن رشد: «قلنا. الظاهر من مقصد الشرع، ليس هو تفريق هذين الاعتقادَيْن [أى الجبر والاختيار]، وإنما قَصْدُه الجمع بينهما على التوسُّط الذى هو الحق فى هذه المسْألة. وذلك أنه يظهر أن الله تبارك وتعالى قد خَلَقَ لنا قوي نَقْدر بها أن نكتسب أشياء هى أضداد. لكن لَمّا كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بمواتاة الأسبَاب التى سخرها الله لنا من خارج وزوال العوائق عنها.. كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأَمْرَيْن جميعا. وإذا كان كذلك.. فالأفعال المنسوبة فعلها إلينا أيضا يتمٌّ فعلها بإرادتنا وموافقة الأفعال التى من خارج لها.. وهى المُعَبَّر عنها بقَدَرِ الله (٣). وهذه الأسباب التى سخرها الله من خارج، ليست هى مُتمَّةٌ للأفعال التى نروم فعلها أو عائقة عنها فقط، بل

(١، ٢) المرجع السابق ص ١٣٥ - ١٣٦. وسوف يأتى تفسير وتحليل لهذه الآية الكريمة فيما بعد.

(٣) نص ابن رشد لم ينته بعد. ولكن يمكن الموافقة على ما جاء به حتي الآن.

وهي السبب فى أن نريد أحد المتقابلين. فإن الإرادة إنما هى شوق يحدث لنا عن تخيُّل ما، أو تصديق بشئ. وهذا التصديق ليس هو لاختيارنا، بل هو شئ يعرض لنا عن الأمور التى من خارج » (١).

إنها ليست فقط الأمور التى من خارج، هى التى تُتَمِّمُ – مع الإرادة الإنسانية – أفعال الإنسان، ولكن أيضا أمورٌ من داخل الإنسان. يقول ابن رشد: « وليس يَلْقَى هذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التى من خارج فقط، بل وبينها وبين الأسباب التي خلقها الله تعالى فى داخل أبداننا » (٢).

وعند هذا الحدّ، نجد ابن رشد يعترف صراحةً، بأن تلك الأسباب الخارجية والداخلية، هى ما أسماه بالقضاء والقدر. فهو يقول: « والنظام المحدود الذى فى الأسبا الداخلة والخارجة، أعنى التى لا تَخِلُّ؛ هو القضاء والقدر الذى كتبه الله تعالى على عباده، وهو اللوح المحفوظ » (٣). وهذا التحليل لفكرة القضاء والقدر، من ابن رشد، كما هو واضح؛ ليس فيه أى مجال لمكتسبات الإنسان الحرَّة فأعمال الإنسان، تتم وتتحدَّد، بناء على أسباب خارجية وأسباب داخلية.

وإذا أردنا استكمال وفَهْم رأى ابن رشد السابق؛ استخلاصًا من فلسفته؛ فإنه يمكن أن نربط بين ثلاثة أمور فى مفهوم ابن رشد، مُترتِّبٌ بعضها على بعض منطقيا. وهي . . مُكتسباتنا الإنسانية، والقضاء والقدر، والعلم الإلهى. فالعلم الإلهى أزلٌ سابق، وهو نفسه، القضاء والقدر. لأن العلم الإلهى فى نظر ابن رشد، هو سبب حدوث الأحداث فى الكون، ومنها أعمال الإنسان. يقول ابن رشد: « إن وجود الموجود هو علةٌ وسبب لعلمنا . والعلم القديم [أى العلم الإلهى] هو علَّة وسبب للموجود » (٤).

---

(١) المرجع السابق: ص ١٣٧. أما الجزء الأخير من هذا النص فلا نوافق عليه وسوف نوضح ذلك فيما بعد.

(٢، ٣) المصدر السابق: ص ١٤٠.

(٤) عن: د. محمود قاسم – نظرية المعرفة عند ابن رشد ص ٢٢٩.

ويمكن موافقة ابن رشد على أن العلم الإلهى، هو سبب وجود الموجودات، ومنها الإنسان - كموجود من ضمن الموجودات. ولكن - بعد ذلك، يتحوَّل العلم الإلهى فيما يتعلق بالإنسان بالذات، من علم يقضى بوجود الإنسان، إلى علم أزلى سابق محيط، بما سوف يحدث من الإنسان، نتيجة أعماله ومكتسباته طوال حياته. لأن الإنسان، هو المخلوق الوحيد الذى قضى الله عليه بإعطائه عقلاً وإرادة، من لدنه تعالى. وهنا يكون العلم الإلهى القديم، لأعمال الإنسان، هو علم محيط، بعلم الله سبحانه، ما سيفعله الإنسان، فى كل لحظة من لحظات حياته منذ الأزل ويكون ذلك مسجَّلاً فى اللوح المحفوظ، وسوف يأتى تحليل موسَّع لهذه النقطة.

ونعود إلى عرض رأى ابن رشد، وهو يحاول تعليل التعارض الموجود فى بعض الآيات والأحاديث النبوية فيقول: «وإذا كان هذا كله كما وصفنا، فقد تبيَّن لك كيف لنا اكتساب، وكيف جميع مكتسباتنا بقضاء وقدر سابق. وهذا الجمع هو الذى قَصَدَهُ الشَّرْع بتلك الآيات العامَّة والأحاديث التى يُظَنُّ بها التعارض»[1].

وهذه الفقرة السابقة لابن رشد، تدلُّ، على أن كل الأفكار السابقة التى عرضها، هى محاولات لتفسير آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية التى ظاهرها فيه تعارض. فبعضها يدل على اكتساب الإنسان لأفعاله بإرادته الحرَّة، وبعضها يدل على أن الإنسان مجبور فى أفعاله. فجَمَع ابن رشد هذين المعنيين، بمحاولاته السابقة، وبذا لا يكون هناك تعارض حَسَبَ مفهومه. ويمكن القول: بأنه ليس هناك تعارض حقيقى فى الآيات الكريمة أو الأحاديث الشريفة؛ ولكن ليس كما فسَّرها ابن رشد. وسوف يأتى بعد ذلك، تحليل يُلقِى الضوء تمامًا على القضاء والقدر، فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

---

(١) ابن رشد - الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٤٠.

وابن رشد بذلك – كما يقول – يوافق على ما اتفق المسلمون عليه، من أنه لا فاعل إلاَّ الله فيقول: «ما اتفقوا عليه صحيح» ويفسِّر ذلك بقوله، إنه يمكن أن يكون لذلك جوابان: «إمَّا أنه لا فاعل إلاَّ الله تبارك وتعالى وأن ما سواه من الأسباب التى يُسخِّرها ليست تسمى فاعلة إلاَّ مجازاً» (١). ويفسِّر ذلك الجواب بقوله: «إن النظام الجارى فى الموجودات هو من قِبَل أمرين: أحدهما ما ركَّب الله فيها من الطبائع والنفوس، والثانى من قِبَل ما أحاط بها من الموجودات من خارج» (٢).

أما الجواب الثانى فى تفسير ما اتفق عليه المسلمون، ووافقهم عليه ابن رشد، من أنه لا فاعل إلاَّ الله .. فهو أن الموجودات الحادثة، عبارة عن جواهر. وطبعًا كلها مخلوقةٌ لله. أمَّا الأعراض التى تظهر على تلك الجواهر، فهى أسباب تقترنُ بها – أى التى نطلق عليها نحن الأسباب مثل الإنسان .. فهو جوهر، وحركاته فهى أعراض فابن رشد يقصد أنه ما دام الجوهر مخلوقًا لله، وهو الأصل؛ فمن الأوْلى أن تكون الأعراض تابعة لهذا الجوهر، أى مخلوقة لله أيضا .. ومنها الأفعال. فهو يقول: «فأما الجواهر والأعيان، فليس يكون اختراعها إلا عن الخالق سبحانه، وما يقترن بها من الأسباب، فإنما تؤثر فى أعراض تلك الأعيان لا فى جواهرها. فإذًا على هذا .. لا خالق إلاَّ الله تعالى. إذْ كانت المخلوقات فى الحقيقة هى الجواهر ..» (٣).

وهذا الجواب واضح، أنه لا يتفق مع القول، بأنه «لا فاعل إلا الله». وقد سبق توضيح وتحليل هذه العبارة من قبل (٤).

وبينما نرى آراء ابن رشد السابقة، تسير فى اتجاه معين، لا يخرج كثيرًا عن آراء الأشاعرة وأهل السلف، فى مضمونه، نَجِدهُ فى نفس الوقت يُهاجم الغزالى

(١، ٢) ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٤٠ – ١٤١.

(٣) المصدر السابق: ص ١٤٢. (٤) ص ٢٠، ٢١ من هذا البحث.

فى نفيه للسَّبَبيَّة، التى يناصرها، هو وباقى الفلاسفة الإسلاميين .. تبعًا لرأى أرسطو الفيلسوف اليونانى السابق لهم. تلك النظرية (السببيَّة)، التى هاجمها الغزالى من قَبْل ونَفَاها على أساس أنه لا فاعل إلاَّ الله - على الحقيقة. فنجد ابن رشد يقول: « أما إنكار وجوب الأسباب الفاعلة التى تُشَاهدُ فى المحسوسات، فقَوْلٌ سفسطائى. والمتكلم بذلك، إمَّا جاحد بلسانه لمَا فى جَنانه [أى قلبه] وإمَّا منْقادٌ لشُبهة سُفسطائية عرضت له فى ذلك. ومن يَنْفِ ذلك فليس يقدر أن يعترف أن كل فعل لا بُدَّ له من فاعل وأمَّا أنَّ هذه الأسباب مكتفيةٌ بنفسها فى الأفعال الصادرة عنها، أو تتم أفعالها بسبب من خارج - إمَّا مفارق وإمَّا غير مفارق، فأمْرٌ ليس معروفًا بنفسه - وهو ممَّا يحتاج إلى بحث وفحص كثير .. » (١).

هذا رغم أنه قال فى نص سابق إنه لا فاعل إلا الله وأن ما سواه من الأسباب « ليست تسمى فاعلة إلا مجازا » (٢).

ثانيا: مناقشة رأى ابن رشد وتحليله

لقد حاول ابن رشد فى آرائه السابقة ، التى عُرِضَتْ فى مشكلة القضاء والقدر؛ أن يوفق بين الشَّرْع والعقل - كفيلسوف إسلامى، يدعو إلى النظرة العقلية فى بحوثه.

ولكننَّا فى الحقيقة .. إذا ما أَلْقَيْنا نظرة كلية على آرائه؛ فإننا لن نجد فيها الترابط المنطقى، سواء من الجانب العقلى، أو الجانب الشرعى. وهذا قد نَتَجَ بسبب تأرْجُحه بين هَذيْن الجانبين: العلقى والشرعى. إلاَّ أننا نجد الحلَّ الفلسفى، قد اندسَّ فى كل آرائه السابقة سواء ما ظهر منها فى ثوب شرعى، أو ثوب عقلى فلسفى.

---

(١) ابن رشد - تهافت التهافت - تحقيق سليمان دنيا ص ٧٨١ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥.

(٢) هذا الكتاب: ص ٣٢.

وعندما نُناقِشُ بعض هذه الآراء السابقة، كما جاءت فى مفهومه؛ فإننا نجد فى الفقرات الأخيرة من آرائه .. أنه يُهاجم الغزالى فى موضوع السببيَّة .. وموضوع الصفات المتعلقة بالموجودات؛ ويَعْتَبِرُ رأيه، نوعًا من الجبرية التى لا يرضاها، لأنها تحدُّ من حرية الإنسان فينفى عنه كل فعل وكل حدث، ولا يجعله إلاَّ لله وحده على الحقيقة. فى حين أننا نَجِدْهُ – فى مكان آخر – يُخالفُ إتجاهه هذا، ويقول بآراء أخرى، عكس ذلك .. بل وتتفق – فى معناها – مع رأى الغزالى، الذى انتقده وهاجمه، واعتبره نوعًا من الجبرية التى لا يرتضيها. فيقول فى كتابه .. «الكشف عن مناهج الأدلَّة»، ما يُعبِّر عن ذلك؛ فيما أَسْماهُ .. أسباب من خارج وأسباب من داخل، تُحدِّدُ الإرادة الإنسانية، وتوجِّهُها إلى أفعال معينة، هى التى يريدها الله تعالى. وهذا هو تمامًا، معنى أنه «لا فاعل إلا الله» الذى انتقد فيه الغزالى. ذلك .. لأن تلك الأسباب التى من خارج، والتى تتمثَّل فى أحوال الطبيعة التى تحيط بنا، والأسباب التى من داخل .. والتي تتمثَّل فى الجهاز البدنى للإنسان، هى جميعا، قد حَدَّدَها الله سبحانه.

ولعلنا قد رأينا فى نصوصه السابقة، أنه قد قال ذلك .. موافقَةً لجمهور المسلمين. ومن هنا يتبين تمامًا، معنى الجبرية فى الأفعال – التى انتقدها فى آراء الغزالى. لأن الإنسان فى آراء ابن رشد يكون مجرد آلة تتحرك دون إرادة، تبعًا للأمور الخارجية والداخلية، التى تجبره على التحرك فى حدود معينة مقرَّرةً، لا يستطيع الخروج عنها.

ومن المعتقد أن ابن رشد، قد تأثَّر فى كثير من آرائه ونظرياته الفلسفية، بالفيلسوف اليونانى الشهير «أرسطو» ومنها رأيه السابق، الذى تأثر فيه، بنظرية الحركة والمحرك الأول الذى لا يتحرك عند أرسطو. فما فكرة الأسباب التى من خارج، إلا صورة من هذه النظرية ويتبين ذلك من النص التالى لابن رشد، فى شرحه لكتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو. يقول ابن رشد شارحًا: «يريد [أى

أرسطو] أن يتكلم فى المبدأ الذى من خارج وهو المحرك [والذى أطلق عليه المحرك الأول — وهو الله] فقال : [أى أرسطو] ولما كان ليس الأسباب هى الموجودة فقط فى التى تكون [أى فى الأشياء نفسها، أو المادة] لكن التى من خارج بمنزلة المحرِّك فظاهرٌ أن المبدأ [أى الله أو المحرك الأول] والأسطقسى [أى المادة] هما غيران، وهما كلاهما مُختلفان — يريد — ولما كانت الأسباب ليس جميعها هى الأسباب التى تَركَّب منها الشئ، وهى كالأجزاء له [أى خواص الأشياء ذاتها] بل وها هنا أيضا أسباب من خارج أحدها محرك .. فَبيِّنٌ أن الأسطقسى والمبدأ سببان متغايران، وهما كلاهما مختلفان . وإنما قال هذا لأن اسم السبب ينطلق على التى من داخل وخارج . وأمَّا المبدأ فَعَلَى التى من خارج وأما الأسطقسى فعلى التى من داخل الشئ » [1] .

وبالرغم من وضوح معنى الجبرية فى الأفعال، من النص السابق لابن رشد ؛ إلاَّ أننا نجدْهُ يهاجم المتكلمين الإسلاميين، وخاصة الغزالى، لِنَفْيهمْ السببية . فيقول : « انطلق متكلمو ديننا من هذا المبدأ . فافترضوا وجود عامل يقوم بعمله فى ذات اللحظة بما لا يُحْصَى من الأفعال المتقابلة المتباينة . فعلى هذا الافتراض، لا تحرقُ النار أبدًا، ولا يُبلِّلُ الماء مُطلقًا . وكل أمر يحتاج إلى خَلْقٍ خاص مباشر . وفضلاً عن ذلك، فإن الإنسان إذا ما رَمَى حجرًا .. فإن الحركة لا تصدر عن الإنسان على ما يزعمون، بل تصدر عن الفاعل الشامل وهكذا فإنهم يُقوِّضون فاعليَّةَ الإنسان » [2] .

ونقول لابن رشد .. أين كانت فاعليَّة الإنسان هذه، عندما حدَّد أفعاله

---

(١) ابن رشد — تفسير ما بعد الطبيعة ص ١٥٢٢ — ١٥٢٥ — المطبعة الكاثوليكية — بيروت سنة ١٩٥٢م .

(٢) إرنست رينان — ابن رشد والرشدية — ترجمة عادل زعيتر ص ١٢٥ — مطبعة عيسى البابى الحلبى — القاهرة سنة ١٩٥٧م .

بأسباب مُقدَّرَةً سَلَفًا من المحرك الأول، الذى هو الله، من خارج ومن داخل . . ؟

فابن رشد هنا ينتقد المتكلمين، لنَفْى الفعل الحر عن الإنسان . . أو عدم فاعلية الصفات الموجودة فى الأشياء، ومنها الإنسان. ويرفض هَدْم هذه الفاعليَّة فيه، وهو الذى قَوَّضَها – كما رأينا فى النصوص السابقة – عن طريق فكرة الأسباب التى من خارج . . ومن داخل. فهو الذى يقول:

« لمَّا كانت الأسباب التى من خارج تجرى على نظام محدود وترتيب منضود . . لا تَخِلُّ فى ذلك بحسب ما قدَّرها بارئها عليه. وكانت إراداتنا وأفعالنا لا تتم ولا توجد بالجملة إلا بموافقة الأسباب التى من خارج، فواجبٌ أن تكون أفعالنا تجرى على نظام محدود. وإنما كان ذلك واجبًا، لأن أفعالنا تكون مُسبَّبَةً عن تلك الأسباب التى من خارج. وكل مُسبَّبٌ يكون عن أسباب محدودة مقدَّرة، فهو ضرورة محدود مُقدَّر . . » (١).

وهكذا نجد أقوال ابن رشد تتعارض وتتناقض. ففى بعض أقواله، يتفق مع رأى الغزالى والأشاعرة؛ فى إسناد كل فعل أو حَدَث . . يحدث فى الكون، إلى الله تعالى وحده، وبطريقة مباشرة. وتارةً أخرى يعارضُه ويدعو إلى حرية الإنسان، وعدم تقويض أو هَدْم هذه الحرية الإنسانية – بنَفْى الفعل عنه.

ولا نعرف سبب هذا التناقض . . أَهُوَ لظروف سياسية كانت موجودة فى عصر ابن رشد . . أو لأسباب أخرى . . ؟.

ومع وجود هذا التنالقض، نجد محاولات بعض الباحثين. الذين يدافعون عن آراء ابن رشد السابقة. ولعلهم يفعلون ذلك، لشهرة ابن رشد الواسعة فى الشرق والغرب. ولكن . . ! ليس المهم، هو شهرة أى شخص؛ بقدر ما تكون الحقيقة هى الأهم فإذا كان ابن رشد، يهمُّنا – كفيلسوف إسلامى؛ فإن الحقيقة، أحبَّ إلينا من أى شئ آخر.

---

(١) ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٤٠.

يقـول أحـد هؤلاء المدافـعين، حين يتكلم عن الإرادة الإنسـانيـة، عنـد ابن رشد : «إنها تتأثر بالأسباب الخارجية التي وضعها الله في متناول أيدينا . فهذه الأسبـاب تسـاعد على تمام أفعـالنا [١]، أو تحول دون نفـاذها ... ومعنى هذا أن أفعال الإنسان ليست اختياريَّةً تمامًا ولا إجباريَّةً تمامًا» [٢] فهو هنا، لم يَجْرُؤْ على مناصرة ابن رشد في رأيه، مناصرةً تامَّة؛ بل أحدث في رأيه بعض التعـديل، بغرض تحسين صورته .

وحتى بعد هذه المجادلة، السابق ذكرها، فإن الأمر لا يستقيم، لأنه حينما تُنْسَبُ الأعمـال الإنسانية إلى الظروف المواتية الموجودة في الخارج، وإلى الإرادة الإنسانية . . معًا؛ فإنه يمكن القول، أنه ما دامت الظروف المواتية الخارجية، هي التي تساعد الإنسان، على أن يتم عمله . . سواء كان خيرًا أم شرًّا؛ فإن تلك الظروف الخارجية، التي هي بالطبع – من صنع الله تعالى، تصبح هي الأساس في عمل الإنسان، وبالتَّالي لا يكون الإنسان مُكْتَسِبًا عمله عن طريق إرادته الحرَّة الخالصة . وبذلك نعود إلى نوع من الجبريَّة، التي يمكن أن تُفسَّر في هذه الحالة، على أنها . . عدم تمكين الإنسان من تحقيق إرادته الحرَّة .

ولكن – من المعروف – أن هذه الظروف أو الأسبـاب الخارجيـة، هي التي سَخَّرها الله للناس، لكي يستخدمها الإنسان، ويُطوِّعُها لإرادته، في صورة أفعال وأحداث يقوم بها، ويكون هو المسؤول عنها، لأنه هو فاعلها، بما سخَّره الله له، من هذه الأمور الخارجية . ولكن . . متى تكون هذه الأسباب الخارجية والأسباب الداخلية، هي المؤدِّيَةَ إلى أن يقوم الإنسان بفعل مُحَدَّد . . أو أن يَحْدُث له حدث محدَّد . . ؟ . . يكون هذا عندما يَحدُث ذلك الفعل . . أو هذا الحدث، دون

---

(١) نلاحظ هنا، أنه لم يقُل . . أن هذه الأسباب الخارجية، هي التي (تحدِّد) أفعالنا، كما قال ابن رشد في نصِّه السابق؛ بل قال : «تساعد» فقط . أي أن الأسباب الخارجية، جزء من الأمور، التي تساعد على تمام أفعالنا . . ولا تحدِّد أفعالنا .

(٢) د . محمود قاسم – الفيلسوف المفترى عليه – ص ١٤٦ .

إرادة حرَّةً من الإنسان. فهنا يكون أمرًا إجباريًا، مُقدَّرًا من الله تعالى، وتكون إرادة الله – حين ذلك – هى المسيطرة وهى المُتَحقِّقَة، ويكون هذا قضاءً جبريًّا (١).

فهذه الظروف الخارجية، تكون فى حالات خاصَّة، هى القضاء والقدر الإجبارى، أو ما يسمى «بالجبرية الكونية». وذلك حين تقضى وتقدِّر إرادة الله العظمى، أمورًا بعيدةً عن الكسب الإنسانى .. ولا إرادةفيها للإنسان؛ مثل الموت .. أو النجاة من موت محقق .. أو المرض أو الكوارث .. إلخ. أمَّا أنها – أى الظروف الخارجية – تؤثر في مُكتسبات الإنسان، التى يحصل عليها، نتيجة إرادته الحرَّة، فهذا يعتبر نوعًا من الإجبار .. لا يُحاسَبُ عليه.

وابن رشد يقول فى نصوصه .. إن هذا النظام المحدود من الظروف الخارجية والداخلية هو القضاء والقدر، المذكور فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. فهو توافقٌ بين المقدرات الطبيعية فى خارج وداخل الإنسان .. وبين إرادة الإنسان.

إذًا .. يمكن أن يُقال .. إنه إذا لم توجَد كل أو بعض هذه الظروف، فإن إرادة الإنسان ستتغيَّر. وهنا .. نريد أن نُفرِّق .. بين الإرادة نفسها، وبين تنفيذ ما تتجَّه إليه هذه الإرادة فى الواقع. لأنه .. إذا ما كانت إرادة الإنسان، ليست حرَّة .. فلماذا إذًا الحساب، والبعث، والثواب والعقاب .. والدار الآخرة ..؟

وإذا كانت هذه الأسباب الخارجية، هى التى تُحدِّدُ إرادة الإنسان واختياره لأفعاله فما الفرق إذًا بين الإنسان، وأى موجود آخر، خالٍ من الإرادة ومن العقل .. مثل الشجر والحجر ..؟

لكن – كما سبق القول – فإن الإرادة الإنسانية، هى التى تُحرِّكُ الظروف الخارجية والداخلية التى أوجدها الله سبحانه، وسَخَّرها للإنسان؛ بما وصفه

(١) سوف نتحدث بعد ذلك عن الفرق بين القضاء الاختيارى، والقضاء الجبرى، فيما يتعلق بالإنسان تفصيلاً.

فى هذه الإرادة من قوة وخصائص بحيث تختار أفعالها .. حرَّةً من كل قَيْد .. ويذكرنا هذا المعنى الأخير، الذى أوضَحْتُه .. بما قاله الفيلسوف الألمانى «كانط»، حينما جَعَلَ العقل الإنسانى، والإرادة الإنسانية .. فى فلسفته؛ هى المسيطرة على الطبيعة (أى على الأشياء التى من خارج)، وليست الطبيعة، هى التى تسيطر على العقل والإرادة الإنسانييَّنْ وتُوجِّهُهُما، كما يقول ابن رشد.

فالأسباب الخارجية، بحالتها العادية التى قدَّرها الله؛ لا تكون سبَبًا فى إجبار الإنسان على أفعاله .. أو على فعل معيَّن، بل هى مُسخرَّةٌ له من قِبَل الله تعالى، لكى يستخدمها بقواه التى وهبها الله له، وعلى رأسها .. الإرادة والعقل. فيوجِّه هذه الأسباب الخارجية .. التى قلنا عنها من قَبْل .. إنها هى الأحداث أو الأفعال أو الأشياء، التى خلقها الله فى الكون، وسَخَّرها للإنسان، لكى تستمر حياته إلى الأجل المقدَّر ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [ابراهيم: ٣٢ : ٣٤] فليست هذه الأسباب الخارجية التى خلقها الله، عائقَةٌ عن الفعل، أو محدِّدَةٌ له بأى صورة من التحديد؛ بل هى مُسخَّرةٌ للاكتساب من جانب الإنسان. والله يقول: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] فقد خلق لنا ما نعمله ونكتسبه، بما آتانا من قدرة وإرادة وعقل ولكن لم يُجبرنا على الطريقة التى نعمل بها، أو على الكيفيَّة التى نكتسب بها هذه الأعمال فنحن أحرار فى الطريقة .. وفى الحركة .. وفى الاتجاه، الذى نكتسب به هذه الأعمال. ومن هنا .. ينتج عن ذلك، مكتسبات خيرِّة وأخرى شرِّيرة، حسب التوجيه الإنسانى لهذه الأفعال .. أو هذه الأحداث .. أو هذه الأسباب الخارجية.

وابن رشد نفسه، يقول ذلك؛ عندما يردُّ على الغزالى، ويقول: إن لكل شئ طبيعة تخصُّه. ولو لم يَكُن له طبيعة تخصة، لما كان له اسم يخصُّه ولا حَدٌّ ولكانت الأشياء كلها شيئًا واحدًا. فلماذًا إذًا – من جانب آخر – ينكر الطبيعة الخاصَّة، التى تخصُّ الإنسان.. والتى تؤكد.. أن له عقلاً، وإرادةً حرَّة.. يتصرف بهما فى كل أفعاله..؟

وأخيرًا.. وبعد أن أبدى ابن رشد، كل هذه الآراء المتضاربة؛ يعترف بأن هذه المشكلة.. «القضاء والقدر»، هى من المشاكل العويصة، التى يصعُبُ إبداء الرأى فيها، قائلاً: «كَوْن هذه الأسباب تفعل أفعالها الخاصة بها، مُستقلَّةً بنفسها، أو راجعة فى آخر الأمر إلى سبب أعلى وحيد خارج عنها؛ فأمرٌ ليس معروفًا بنفسه ويحتاج إلى البحث الكثير».

وهكذا نرى آراء ابن رشد المتناقضة. ولا نعرف السبب فى ذلك – كما سبق القَوْل؛ وهذا يحتاج إلى بحث كبير آخر..

وليس المقصود من هذا، هو إظهار التناقض فى هذه الآراء؛ سواء آراء ابن رشد، أو آراء الغزالى أو غيرهما؛ ولكن الهدف الأول، هو تصحيح أفكارنا، ومحاولة الوصول إلى آراء سديدة، فى مثل هذه المشكلات التى تَمسُّ ديننا الحنيف.. ومنها مشكلة «القضاء والقدر». مستخدمين فى ذلك العقل الإنسانى، الذى وهبنا الله إيَّاهُ، لنستخدمه أول ما نستخدمه، فى التفكُّر فى ملكوت الله وعظمته؛ وواضعين أمامنا.. النصوص الدينية من القرآن الكريم والسنَّة.. والتى سنفرد لها الفصل التالى من هذا الكُتَيِّب – التى أنزلها الله سبحانه، لكى تساعد هذا العقل الإنسانى، الذى يتميز بالقصور، وعدم الكمال.. لأن الكمال.. لله وحده...

* * *

المبحث الرابع

القضاء والقدر فى القرآن والسنَّة

مقدمة : بعد أن فرغنا من معرفة آراء مختلفة، اهتمت بالبحث فى مشكلة القضاء والقدر! الفرق الإسلامية : الجبرية – المعتزلة – الأشاعرة، الفيلسوفين الإسلاميين : الغزالى وابن رشد؛ فها نحن الآن، سوف نضع أنفسنا أمام هذا النَّبْع الصافى .. أمام الأصل، لكى يستقى كلٌ منا، مفهومه النقى، لهذه المشكلة العقائديَّةَ الهامَّة ...

فَلْنَضَعْ أمامنا مباشرةً، مشكلة القضاء والقدر، كما فى نصوص الشريعة الإسلامية من القرآن الكريم والسنَّة الشريفة؛ ونتَفحَّصَها بقلب سليم، وعقل واع، لكى نستطيع أن نحكم على الآراء السابقة من خلالها؛ ونحاول الوصول إلى المفهوم الصحيح لهذه المشكلة.

وسوف يتم عرض الآيات القرآنية الخالدة، والأحاديث النبوية الشريفة المختارة، أولاً متتالية دون فواصل بينها – من تفسيرات أو تحليلات أو غيره. وذلك حتى يكون لها وَقْع قوى خالص فى نفس الإنسان متفكرًا فى معانيها، تفكيرًا ذاتيا، مبدئيًا؛ محاولا تفحُّصها بوعى وإيمان. وحتى تَتَهَيَّأ النفس للتفسيرات والتحليلات، التى تأتى بعد ذلك، وبذلك يمكننا أن نتعمَّق ونتوصَّل إلى معانى خالصة واضحة .. لهذه المشكلة.

أولا : القضاء والقدر فى القرآن الكريم :

(أ) – نصوص الآيات القرآنية – قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

١ – **﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾** [الأنفال : ٥٠ – ٥١]

٢ – وقال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]

٣ – وقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]

٤ – وقال تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

٥ – وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٩ – ١٠٠]

٦ – وقال البارى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الانعام: ١٠٧]

٧ – وقال الخالق سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]

٨ – وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]

٩ – وقال الخالق: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]

١٠ – وقال سبحانه: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢]

١١ – وقال الحق: ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]

١٢ – وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]

١٣ – وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١]

١٤ – وقال سبحانه: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [ابراهيم: ٢٧]

١٥ – ويقول تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦]

١٦ – وقال تعالى فى كتابه العزيز في مجال ذكر أمر سيدنا يعقوب وابنه سيدنا يوسف وباقى أبنائه: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾

[يوسف: ٦٦ – ٦٨]

(ب) – تفسير ومناقشة وتحليل الآيات القرآنية:

« إننا حينما نحاول معرفة معنى « القضاء والقدر » عن طريق الفَهْم المباشر للآيات القرآنية السابق ذكرها؛ فإننا نجد أن المفتاح فى ذلك، يرجع إلى « العلم الإلهى » فالله عليم .. ومحيط بكل شئ فى الوجود . وهذا يدعونا إلى التدبُّر فى معانى تلك الآيات الخالدة، من هذا المُنْطَلَق والنفاذ إلى أعماقها .. وليس

الاقتصار على المعنى الظاهرى لها. ذلك أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، يخاطبان عقولنا .. وليس حواسَّنا ومظاهرنا.

لذا .. يجب إعْمالَ الفكر .. للوَعْى بما فيهما، بالقدر الذى وضَعَهُ الله فى العقل الإنسانى، من القدرة على الوَعْى والإدراك. وسنسير على هذا الطريق إن شاء الله .

فإذا ما أمْعَنَّا الفكر، فى تلك الآيات؛ ؛ لَوَجَدْنا أننا – من خلال ضرورة الْتزامنا بنظرية الثواب والعقاب – ننتهى إلى أن الإنسان، مسؤولٌ تمامًا، عن كل أفعاله الحرَّة التى يأتيها بمحض إرادته الواعية. وهذا أمر لا يختلف عليه أى عاقل.

فإذا ما نظرنا من خلال هذا المفهوم – بالإضافة إلى مفهوم العلم الإلهى القديم؛ إلى تلك الآيات التى ظاهرها الإجبار؛ لاسْتَطعْنا فَهْم معناها الحقيقى.

ذلك أننا نجد أمامنا، الدائرة الكبرى للعلم الإلهى. فالله يعلم بعلْمه الأزلىّ القديم المحيط، . كل تلك الأفعال، التى سوف يَعْمَلُها الإنسان .. خلال فترة حياته كلها إنْ خيرًا وإن شرًّا؛ بما وهبه الله من إمكانيات الحياة – وإنَّ ذلك على الله يسير. فهو يعلم بعلمه .. ما سوف يَكُونُه أى إنسان، خلال فترة حياته؛ ويعلم مصيره فى النهاية، عندما تتم كل أعماله .. بموته. أشقىٌّ أم سعيد. أى أنه يعلم تصرفات الإنسان الحرَّة التى سيفعلها بمحض إرادته، لأنه منحه الإرادة التى يكون بها حرًّا فى تحقيق أفعاله. إن « علم الواجب (أى الله) محيط بما يقع من الإنسان بإرادته .. وبأنَّ عملَ كذا يصدر فى وقت كذا .. وهو خير يُثابُ عليه، وأنَّ عملاً آخر شرٌّ يُعاقَبُ عليه عقاب الشر والأعمال فى جميع الأحوال حاصلةٌ عن الكسب والاختيار. وكَوْن ما فى العلم يقع لا محالة .. إنما جاء من حيث هو الواقع، والواقع لا يتبدَّل » (١).

---

(١) الشيخ محمد عبده – رسالة التوحيد ص ٤٩ – مطبعة محمد صبيح – الازهر – القاهرة سنة ١٩٦٥م.

هذا هو ما قَدَّره الله منذ الأزل، على النوع الإنسانى .. وهذا هو القضاء والقدر بالنسبة لمكتسبات الإنسان الحرَّة، التى يكون فيها الإنسان مُخَيَّرًا. فهو مَبْنِىٌّ على العلم الإلهى الأزلى السابق الشامل. أما القضاء والقدر – فى جانب آخر؛ فإن الإنسان فيه، يكون سَلْبِيًّا أو – بمعني آخر – يكون مُسَيَّرًا .. مُجْبَرًا، تَقِفُ عنده إرادته عاجزة؛ لأنها – مع حُرِّيتها – إرادة محدودة، وليست مُطلقة. فهذه الإرادة لا تستطيع أن توجد نفسها، أو أن تمنع الموت، أو أن تُغيرِّ من شكل أى إنسان أو من صوته أو لونه مثلاً، أو تمنع الكوارث التى تقع. فهى إرادة قاصرة – لأنها إرادة مخلوقة .. والذى خلقها هو صاحب الإرادة العظمى .. هو الله؛ الذى يُقدِّر عليه كل هذه الأحوال .. قضاءً جبريًا.

فهذا الجانب الأخير، من القضاء والقدر، واضحٌ أَنْ ليس للإنسان أى تدخُّلٌ فيه فالموت والحياة .. والأمراض والكوارث .. إلخ؛ ليست مكتسبات إنسانية.

وحينما ننتقلُ من هذا المفهوم العام، إلى محاولة مناقشة وتفسير الآيات القرآنية الحكيمة السابقة، فى ضوء هذا المفهوم؛ فإن هذا المفهوم العام، سيجد مكانًا ثابتًا فى نفوسنا.

١ – فحينما يقول الله سبحانه: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨] فإن المقدار هنا، هو التقدير. وهو بالنسبة للأشياء المكتسبة إنسانيًّا؛ عبارة عن تدقيق ومعرفة دقيقة. أى علم أزلى قديم من الله، بما سيكسبُه الإنسان، بإرادته الحرَّة المحدَّدَة بحدود لا تتعدَّاها. ويكون هذا التقدير، بالنسبة للأشياء الأخرى، الغير مُكتسبة إنسانيا .. حسابًا دقيقًا لتنظيم كل أشياء الوجود أو الكون. لا شئ يتقدم على آخر، لا يتضارب أى فلك مع فلك آخر.

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] وكذلك .. فإن خَلْق آدم .. بقَدْر، وتزايُد ذريته بقَدْر، وخَلْق أو موت أى شئ فى الكون .. بقَدْر محدَّد، كل هذا يتم فى أوقات

مُحدَّدة، قدَّرَها الله فى كتابه القديم . . قَبْل خَلْق الكون بكل ما فيه « والمقدار » هو أساس النظام فى الوجود [١] .

(فكل شئ عنده بمقدار) دقيق – لَوْ زاد أو قلَّ أو أبطأ أو أسْرَع . . لا نَهْدَمَ هذا النظام العجيب، لهذا الكون الشاسع، الذى خلقه الله تعالى بحكمته وتقديره . . إلى أجله المعلوم، الذى حَدَّده الله تعالى . يقول سبحانه : ﴿ **إنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ [فاطر : ٤١]

ويقول ابن كثير فى تفسيره : ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ أى بأجل، حَفظَ أرزاق خَلْقه وآجالهم وجَعَلَ لذلك أجلاً معلومًا . وفى الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبى ﷺ بعثت إليه أن إبنًا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره فبعث إليها يقول « إن لله ما أَخَذَ وله ما أعْطى، وكل شئ عنده بأجل مُسمًّى؛ فَمُرْها فَلْتَصْبر ولْتحتسب » [٢] ذلك أن هذا قَدَر جبرى، مُقدَّر من لدن الله تعالى .

٢ – ومن خلال الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة؛ نجد أن النوع الأول، وهو مُكْتَسبات الإنسان الحرَّة وعلْمُ الله بها علمًا أزليًّا قبل أن يكتسبها الإنسان فى الواقع؛ فيه حساب وعقاب للإنسان . وهذا يدل على عدم الجبرية فى الأفعال الإنسانية، لأن الله تعالى، لم يتدخَّل ليُجبر أى إنسان على فعل مُعيَّن وهذا معناه – كما يقول ابن حجر العسقلانى . . « أن كل شئ لا يقع فى الوجود إلا وقد سَبَقَ به علم الله ومشيئته، وإنما جعلهما فى الحديث غايةً لذلك للإشارة إلى أن أفعالنا

---

(١) وقد وجدنا بعض الفلاسفة فى العصر الحديث، وخاصة « ديكارت » يريدون أن يخضعوا كل شئ فى الوجود للرياضيات – أى المقادير – حتى اللغة والمعانى . كما نجد فى هذا العصر . . الثورة الهائلة فى نُظُم الحاسبات الإلكترونية، مثل الكمبيوتر والانترنت وغيرهما – التى تمدنا بقياسات دقيقة . وأعتقد أن هذا الاتجاه سليمًا، لأنه يتفق مع هذا التوجيه الكريم، الذى لم يَنْتبهْ إليه الناس؛ حتى ساقَتْهُم فطرتُهُم إليه . . بطريقة طبيعية .

(٢) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم م ٢ ص ٤٨٤ .

وإن كانت معلومةً لنا ومُرادةً منّا . . فلا تقع مع ذلك منا إلاَّ بمشيئة الله، وهذا ما ذكره طاوس مرفوعا وموقوفًا مُطابقًا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ (١). ويؤكد ابن كثير ذلك المعنى، ويقول أنه «يُسْتَدَلُّ بهذه الآية الكريمة على إثبات قَدَرَ الله السابق لِخَلْقه، وهو عِلْمُهُ الأشياء قبل كَوْنها وكتابته لها قبل تبرُّمها» (٢). ويقول الله سبحانه: ﴿ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ** ﴾ [القمر: ٥٣]

أما النوع الثانى . . فإننا نلاحظ جميعا، أنه ليس عليه أى ثواب أو عقاب. فلا يُعاقَبُ إنسان لأنه يموت، أو لأن لونه أسود أو لأن كارثة حدثَتْ له، ولا يُثابُ . . لأن لونه أبيض – مثلا – أو لأنه وُلِدَ وَوُجِدَ فى الحياة. وهذا ما يعبِّر عنه (حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له «واعلم أن الأمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشئ لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يكتبه الله عليك لم يضرُّوك . .») (٣).

٣ – وإذا رجعنا إلى الآيات الكريمة، فإننا حينما ننظر ونتدبَّر الآيتَيْن الكريمتين، اللتين يقول الله تعالى فيهما: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ [يونس: ٩٩ – ١٠٠] فإننا – لأوَّل وهلة، نظن أنهما تحملان معنى الإجبار. لذلك فإن الوصول إلى الفهم الحقيقى لهما ولأمثالهما من الآيات القرآنية الحكيمة، يحتاج إلى تعمُّق مؤمن مُخلص. ومن هنا فإنه يمكن القَوْل، أن الله سبحانه، يملك القدرة والجبروت والإرادة كلها، التى تجعله يشاء فيكون كل الناس مُهتدين ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ يا محمد لأذنَ لأهل

---

(١) العسقلانى – أحمد بن على بن حجر – فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ١١ ص ٥٨٦ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط ١ – ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩م.

(٢) ابن كثير – تفسير القرآن م ٤ – ص ٢٦٩.

(٣) عن المرجع السابق: م ٤ ص ٢٧٠.

الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم .. ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى »[1].

وإذا أتَيْنا إلى الجزء الآخر من الآية الكريمة؛ فإنه تعالى يدعو الرسول ﷺ، ألاَّ يُكْرِهُ الناس، بل يتركهم لإراداتهم الحرَّة .. لماذا ..؟ لأنه سبحانه قَرَّرَ أمْرًا ولا رادَّ لأمره وقراره .. ولا بُدَّ أن يستمر هذا القرار. قَرَّرَ أن يُعطى للإنسان العقل والإرادة والحريَّة .. ثم يرى نتيجة هذه النِّعَم .. أَيَشْكُرُ أم يكفر ..؟ وذلك بدون إكراه حتى يتبيَّن له سبحانه نتائج خلقه، والله يقول: ﴿ **لا إكْرَاهَ في الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ هذه هى الحرِّية .. هذه هى الحياة مبسوطةً أمام كل إنسان .. لكى يختار، وكفى بالله بعد ذلك حسيبًا.

والآية الثانية التي تلى الآية السابق ذكرها، تدل سطحيًّا على الإجبار الإلهى ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ ولكننا إذا قَسَّمناها إلى جُزْءَيْن؛ نجد أن هؤلاء الذين لا يعقلون – في نهاية الآية – هم الذين لا يأذَنُ الله لهم بأن يدخلوا دائرة الإيمان – فى أول الآية. ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله** ﴾ فقد كُتِبَ عليهم الكفر، نتيجة عدم استخدامهم عقولهم فى طريق سليم. أما هؤلاء الذين أذنَ الله لهم أن يكونوا مؤمنين، فهم الذين يكونون عكس ذلك – أى الذين يعقلون، فى مُقابل الذين لا يعقلون. فالذين يعقلون، يأذَنُ الله لهم بالدخُول تحت زمرة المؤمنين الناجين. أما الذين لا يعقلون، فهم الذين لا يرضى عنهم ولا يأذن لهم الله بالدخول تحت نطاق هذه الزمرة المؤمنة الناجية. أليس الأمر كله هنا – يتوقف على التصرف العقلى الحر للإنسان ..؟ بعيداً عن الإجبار ..؟ وإذا ذهبنا إلى ابن كثير، فى تفسيره نَجدْهُ يقول: ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلاَّ بإذن الله ويجعلْ الرجس** ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ **على الذين لا يعقلون** ﴾ أى حجج الله وأدلَّته وهو العادل فى كل ذلك فى هداية من هدى وإضلال من ضلَّ» [2].

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م ٢ ص ٤١٤ – دار الحديث – القاهرة ١٤١٥ هـ/١٩٩٤م.

(٢) المصدر السابق: ٤١٥.

٤ – والآية الكريمة، التى يقول الخالق سبحانه فيها: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]

هذه الآية الكريمة، تدل – إذا ما نظرنا إليها بطريقة سطحيَّة وبدون تعمُّق؛ على أن كل المصائب التى تصيب الإنسان، هى قضاء وقدر إجبارى من الله لأنها مُسجَّلة فى الكتاب – أى اللوح المحفوظ – قبل أن يُخْلَق الخَلْق ولكن الذى تؤكده الآية أولاً، هو مفهوم العلم الإلهى؛ الذى يحيط بما يُصيب أى إنسان، سواء نتيجة تصرفاته ومكتسباته، أو نتيجة حتمية القضاء والقدر الإلهى فكل ذلك فى كتاب أمين فى اللوح المحفوظ، من قَبْل أن تحدث فعلاً فى الواقع. أى من قبل أن يَبْرأها الله تعالى.

ويعبِّر ابن كثير عن هذين النوعين من القضاء والقدر بقوله عن قتادة: «قال قتادة ما أصاب من مصيبة فى الأرض – هى السنون يعنى الجَدْب ﴿وَلا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ يقول الأوجاع والأمراض [كما يقول إن] هذه الآية الكريمة العظيمة أدلَ دليل على القدريَّة نفاة العلم السابق قَبَّحَهُم الله .. وقوله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى أن علمه تعالى الأشياء قَبْل كَوْنها وكتابته لها طبْق ما يوجد فى حينها سهل على الله عز وجل .. لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون» [1].

٥ – ويمكن توضيح هذه المصائب – المذكورة فى الآية السابقة؛ بتحليل وتفسير آية أخرى، يقول الله تعالى فيها: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ففيها يتضح أن المصائب قسمان:

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م٤ ص ٣١٥ .

١ – قسم من الله عز وجل. وهذا ليس للإنسان فيه أى تدخُّل، ولا ذنب عليه أدَّى به إلى هذه المصائب مثل الموت أو المرض أو الفقر أو الكوارث.. إلخ.

٢ – أمَّا القسم الثانى فهى المصائب التى تأتى عن طريق الإنسان نفسه، نتيجة أعماله الخاطئة مثل الهزيمة التى حدثَتْ للمسلمين فى غزوة أُحُد، عندما لم يُطيعوا أمر قائدهم فى الحرب .. ﷺ ومثل الفشل الذى يصيب الإنسان، عندما لم يبذل الجهد المطلوب فى أى عمل لذا فإن الله – فى هذه الآية، يخاطب المسلمين عندما لم يحالفهم التوفيق فى إحدى الغزوات فهذه المصيبة التى أصابتْهُم، ليست من عند الله أى ليست من النوع الأول الجبرى، ولكنها من عند أنفسهم، وهم مُسَبِّبوها ومُكتَسبوها، نتيجة تصرفاتهم الخاطئة، وعصيانهم لرسول الله ﷺ ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عند أنفُسِكُمْ** ﴾.

وقال المفسرون أن سبب نزول هذه الآية؛ هو المصيبة التى أصابت المسلمين «وهي القَتلى الذين قُتلوا منهم يوم أحُد، والجرحى الذين جُرِحُوا منهم بأحُد، وكان المشركون قتلوا منهم يومئذ سبعين نفرًا» (١)

وكان المسلمون قد أصابوا الكفار يوم غزوة بدر، بضعف هذا العدد. أى «قد أصبتُّم أنتم أيها المؤمنون من المشركين مِثْلَيْ هذه المصيبة، التى أصابوا هم منكم، وهى المصيبة التى أصابها المسلمون من المشركين ببدر وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين» (٢). ومع ذلك – فإنهم حينما أصابتهم هذه المصيبة تعجَّبوا، وقالوا أنَّى هذا .. «ومن أين أصابنا هذا الذى أصابنا ...؟ قُلْ يا محمد للمؤمنين بك مِنّ أصحابك: هو من عند أنفسكم [كيف ..؟] بخلافكم على نبى الله ﷺ إذْ أشار عليكم بتَرك الخروج إلى عدوكم والإصحار لهم، حتى

(١، ٢) الطبرى – أبى جعفر بن جرير – جامع البيان فى تفسير القرآن – م ٤ ص ١٠٨ دار الحديث – القاهرة – ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م.

يدخلوا عليكم مدينتكم ويصيروا بين آطامكم فَأَبَيتُم ذلك عليه، وقُلتُم: اخرج بنا إليهم حتى نَصْحَرَ لهم فنُقاتلَهُم خارج المدينة» (١) فحدث لكم ما حدث. كما ذكر «القرطبى» سببًا آخر لهذه المصيبة، هو «اختيارهم الفداء يوم بدر على القَتْل، وقد قِيلَ لهم: إن فادَيْتُم الأسارى قُتِلَ منكم على عِدَّتِهم» (٢) وهذا قول ضعيف.

إذًا .. «فى هذه المواجهة، يجد المؤمنون عتابًا رقيقًا من الله، وَعَوْدًا باللائمة عليهم فيما وقَع لهم .. فإذا كان ثمة خلل فى جماعة المسلمين مَكَّنَ لعدوهم أن ينال منهم ما نال. فذلك الخَلل، إنما هو فى ذات أنفسهم .. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أى بما أَحْدَثْتُم فى هذا اليوم من أمور» (٣).

وقد حدث هذا بإذن الله – كما جاء فى الآية التالية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦] أى بأمره وقراره الذى قرَّرَ فيه عقاب العاصين. وهناك سبب حقيقى آخر لهذه المصيبة التى حدثت للمسلمين فى هذه الغزوة، ذكره الله فى هذه الآية هو، تمحيص المؤمنين واختيارهم عن طريق الجهاد. وذلك فى قوله تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى من غير المؤمنين.

٦ – ومع أن ما أصاب المسلمين يوم أحُد – كما تبين من تفسير الآية الكريمة السابقة؛ كان بسبب، ما أكتسبوه من مخالفات – أو بمعنى آخر – بسبب ذنوبهم التى ارتكبوها؛ فإن ما حدث، كان مَقْضىٌّ به من الله عليهم، بسبب أفعالهم.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – المجلد الثالث – الجزء الرابع – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط ١ – ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

(٣) عبد الكريم الخطيب – التفسير القرآنى للقرآن – الكتاب الثانى – الجزء الثالث والرابع – دار الفكر العربى ص ٣١٩ – ٣٢٠.

لكن هناك نوع آخر من القضاء والقدر، يتَّصف بالجبريَّة - أى لا يكون بسبب أفعال العباد، بل يكون رغما عنهم وذلك لحكمة الله تعالى وتقديره فى هذا الكون. فقد يكون لتمحيص واختبار إيمان المسلمين .. أو إعداداً للجهاد، وقد يكون إنذاراً أو تخويفًا ... إلخ.

وهذا يتبين من تفسير الآية الكريمة، التى يقول الله تعالى فيها: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة: ٥١].

وإذا كان الظاهر من هذه الآية الكريمة، أنها تقوم على القضاء والقدر الإجبارى ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾؛ لكن بعد الفحص والتعمُّق؛ نجد أن هذا الذى يُصيبنا، والذى كُتبَ عند الله سبحانه فى اللوح المحفوظ منذ الأزل، نوعان: النوع الأول .. هو القضاء الجبرى مثل الأمراض والكوارث والموت .. إلخ، وكذلك أى شئ يصيب الإنسان رغمًا عنه. أما النوع الثانى .. فهو قضاء وقَدَر اختيارى.، أى باختيار الإنسان .. ومُتَرتِّبٌ على أعماله، فإنَّ كانت خيراً كانت النتيجة خيراً .. ولا يصيبه إلاَّ ما فيه الخير، أمَّا إذا كانت سيئة .. فإن النتيجة تكون سيئة .. ويُصابُ بأشياء سيئة .. مثل الفشل فى حرب أو امتحان أو تجـــارة.

وكما سبق القول؛ فإن الله سبحانه يعلم علمًا أزليا بما سيحدث من أى إنسان طوال حياته، ويُكتَبُ ذلك فى اللوح المحفوظ .. ويصبح قضاءً وقدراً .. مُسجَّلاً فى الكتاب الإلهى منذ الأزل.

يقول النيسابورى فى حاشيته على شرح الطبرى: «قُلْ يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين تخلَّفوا عنك [أى فى الحرب]، لن يصيبنا أيها المرتابون فى دينهم إلاَّ ما كتَبَ الله لنا فى اللوح المحفوظ وقضاه علينا» (١). ويقول الطبرى: «إذا عَلِمَ

(١) الطبرى - جامع البيان - من حاشية النيسابورى - م ٦ جـ ١٠ ص ١٠٥.

الإنسان أن الذى وقع امتنع أن لا يقع، لأن خلاف معلوم الله ومقدوره مُحال، زالت عنه منازعة النفس، وهانت عليه المصائب » [1]. ويقول ابن كثير: « . . . ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ أى نحن تحت مشيئته وقَدَره » . إن هذا النوع من القضاء والقدر الجبرى، لا يسأَلُ فيه الله تعالى عمَّا يفعل فالْمُلْكُ مُلْكُه، ولا رادَّ لقضائه ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

« والله قد كتب للمؤمنين النصر، ووعدهم به فى النهاية، فمهما يصيبهم من شدَّة، ومهما يُلاقوا من ابتلاء، فهو إعداد للنصر الموعود، لينالـه المؤمنون عن بيِّنة وبعد تمحيص . . . والاعتقاد بقدر الله، والتوكُّل الكامل على الله، لا ينفيان اتخاذ القدَّة بما فى الطوق [أى العمل] فذلك أمر الله الصريح: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ وما يتَّكِلُ على الله حق الإتكال من لا ينفذ أمر الله، ومن لا يأخذ بالأسباب، ومن لايدرك سنة الله الجارية التى لا تُحابى أحدًا، ولا تراعى خاطر إنسان! . . » [2].

٧ - أمَّا الآية الكريمة، التى يقول فيها الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]؛ فإنها من نوع القضاء الجبرى، ويدخل فيما يسمى « الجبرية الكونية » وهى من السنن الإلهية التى يقدِّرُها الله فى الكون. فتصوير الله للإنسان فى الأرحام . . حيث يصوِّرُه، إما ذكرًا أو أنثى . . ذو لون معين . . مقاييس مُحدَّدة لأعضاء الجسم . . عيون ذو لون معين . . تقاسيم الوجه . . الصوت؛ كل هذه الأمور، يُصوِّرُها الله عزَّ وجلّ فى الأرحام ولا دَخْلَ لنا فيها فهى قضاء خالص؛ لذا فليس فيها حساب، لأنها ليست مكتسبات إنسانية.

---

(١) المرجع السابق - جامع البيان للطبرى - ص ١٠١.

(٢) سيد قطب - فى ظلال القرآن - المجلد الثالث ص ١٦٦٤ - سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م - دار الشروق - القاهرة.

ونجد المفسرين قد أجمعوا، على أن هذه الآية الكريمة، تدلُّ على القضاء الجبرى. فالطبرى يقول: « يعنى بذلك جَلَّ ثناؤه الله الذى يصوركم فيجعلكم صُوَرًا أشباحًا فى أرحام أمهاتكم كيف شاء وأحَبَّ، فيجعل هذا ذكرًا وهذا أنثى، وهذا أسود وهذا أحمر. يُعَرِّفُ عباده بذلك، أن جميع ما اشتملتْ عليه أرحام النساء مِمَّنْ صَوَّرَه وخَلَقَه » (١).

ويقول القرطبى كذلك: « هذه الآية تعظيم لله تعالى .. قوله تعالى: ﴿ **كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ يعنى من حُسْنٍ وَقُبْح وسواد وبياض وطُول وقِصَر وسلامة وعاهة إلى غير ذلك » (٢).

ويؤكد ابن كثير على نفس المعنى، فى « تفسير القرآن العظيم » (٣).

٨ – ويقول الله تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

هذه الآية الكريمة، تَنْفى تمامًا، أى نوع من الجبر، الذى يبدو ظاهرًا فى بعض الآيات الأخرى أو الأحاديث النبوية .. التى نحن بصدد تفسيرها وتحليلها. ففى هذه الآية، يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ؛ بعدم إكراه أى إنسان، على الدخول فى الدين الإسلامى .. وذلك بعد أن قام ببيان مفهوم هذا الدين الحنيف .. وأصبح واضحًا أمام الجميع، طريق الغيّ والضلال .. وطريق الرشاد والنجاة. فَلْيُتْرَكَ الناس بعد ذلك لإراداتهم الحرَّة التى منحهم الله إيَّاها، ووضع فيها صفات الحرية فى الاختيار ثم بعد ذلك، سينالُ كل فرد جزاء أعماله .. سواء خَيِّرة أو شرِّيرة تحت نظام المسؤولية والجزاء.

---

(١) الطبرى – جامع البيان – م٣ – ص ١١٢.

(٢) القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – م ٣ – ص ٦، ٧.

(٣) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م ١ – ص ٣٢٥.

وهذه الآية تدعونا إلى أن نُدَقِّق النظر فى الآيات الكريمة الأخرى، التى تبدو فى ظاهرها الإجبار .. حتى نصل إلى حقيقة مفهومها الذى لا بُدَّ أن يكون فى النهاية، بعيدا عن الإجبار الإلهى لأى إنسان على أفعاله .. التى سيُحاسبَهُ عليها .. وينال الجزاء العادل عنها.

فـ « تحرير ضمير الفرد من الضلال والعَمَى، وفك عقله من الضيق والإظلام، لا يكون إلا بتحرير إرادة الإنسان، وإطلاقها من كل قَهْر أو قَسْر. وأنه لن تَصِحَّ إنسانيَّةُ الإنسان، ولن يكتمل وجوده إلاَّ بالضمير الحرّ والعقل المتحرر ... وقوله تعالى: ﴿ **قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ ... إنما هو تقرير لبيان الحال من أمر الدعوة الإسلامية. إذْ قد استبانَتْ معالمها، وَوَضُحَتْ حدودها، وأن الذى ينظر فى مُقرَّراتها، وفى شواهدها وآياتها ثم لم يجد الهدى ولا يُقْبِل عليه، فلا سبيل إلى هُداه ولا جدوى من إيمانه » [1].

ويقول بعض المفسِّرين، إن هذه الآية، قد نَزَلَتْ فى أبناء الأنصار، الذين كانوا قد تَهوَّدوا أو تَنصَّروا من قَبْل، ولم يَرْضُوا بالدخول فى الدين الإسلامى. ولكن الطبرى يقول فى النهاية، إنها عامَّة، وليست خاصة بقوم أو حالات معينة فمن رَضِىَ بالإسلام حُكْمًا، ودفع الجزية، فهو حُرٌّ فى الدين الذى يريد أن يعتنقه، ولا يُكره على الإسلام. فهؤلاء « نَهى الله تعالى ذكره عن إكراههم على الإسلام، وأنزلَ بالنَّهْى عن ذلك آية يعم حُكمها كل من كان فى مثل معناهم ممن على دين من الأديان التى يجوز أخذ الجزية من أهلها وإقرارهم عليها .. ومعنى قوله لا إكراه فى الدين .. لا يُكْرَهُ أحد فى دين الإسلام عليه » [2].

حتى الأسرى .. فلا يُكْرَهون على الإسلام، حتى يتبين لهم الرشد من الغيّ ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ**

---

(١) عبد الكريم الخطيب – التفسير القرآنى للقرآن ص ٣١٩.

(٢) الطبرى – جامع البيان فى تفسير القرآن م ٣ ص ١٣.

لَهَا﴾. أمَّا «مـن حادَ عن الرشاد بعد استبانته له، فإلى ربه أمره وهو وليُّ عقوبته فى معاده» (١).

لذا نجد ابن كثير يقول، إنه جاء فى الصحيح: «عَجبَ ربك من قوم يُقادون إلى الجنة فى السلاسل» يعنى الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام فى الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يُسلمون وتَصلحُ أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة» (٢)؛ بعد أن يعرفوا حقيقة هذا الدين.

وهكذا يتبين؛ أنه ليس هناك أى نوع من الإجبار أو الإكراه على اعتناق الإسلام، بل يُتْركُ الناس ليختاروا .. بعد أن وَضُحَ أمامهم الطريقان .. طريق الغى والضلال .. وطريق الرشاد والنجاة.

٩ – يقول الله تعالى: **﴿ ... وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ... ﴾** [النساء: ٧٨ – ٧٩]

هذه من الآيات التى يختلط فهمها على الناس. ففيها ما يدلُّ على الإجبار، وما يدل على الاختيار. فهل يُعتبر هذاتعارضا ..؟ ويبدو ما فيها من الإجبار فى قوله تعالى: **﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾** لكن .. ليس هذا إجبارًا أو قهرًا أو تعسُّفًا؛ بل هو تصحيحٌ للمفاهيم الخاطئة. فقوله تعالى: **﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾**؛ هو مخاطبة الله تعالى لنبيِّه محمدًا ﷺ .. **﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾**، سواء الحسنة أو السيئة.

---

(١) المرجع السابق: ص ١٣

(٢) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – دار الحديث – القاهرة ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ – ص ٢٩٤.

فالحسنة من الله، التى أصابت الإنسان . . ليست إصَابةً عشواء . . أعطاها الله له دون أن يستحقَّها . . ولكنها نتيجة عمل الإنسان، لأنه قد أطاع الله . . فأَثَابَهُ وأعطاه الحسنة. أما السيئة . . فكيف تكون من عند الله . . والله لم يَأْمر بها . . بل يأمُرُ بتَرْكها . .؟ تعليل ذلك. هو أن هذه السيئة . . من عند الله؛ على أساس أن مُرتكبُها نفسه – وكذلك الأعمال التي استخدمها في الإتْيان بالسيئةَ، هي جميعا من عند الله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. فالأعمال عبارة عن أحداث، خلقها الله في الوجود . . لكن الذى حوَّلَ هذه الأعمال . . التي خلقها الله كأحداث متنوعة في الكون . . إلى سيِّئات هو الإنسان. رغم أنها أصلاً من الله – كما أوضحنا.

لذلك يؤكد الله سبحانه وتعالى هذا المعنى، فى الآية التالية فيقول: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾؛ لأنك أنت الذى حوَّلْتَ الأشياء التى هى من عند الله . . إلى سيئات. هنا أَصْبَحْتَ أَنْتَ المسؤول عن السيئة، بعد أن حَوَّلْتَها من أعمال وأحداث عادية – خَلَقَها الله فى الكون مُسخَّرةً لك – حَوَّلْتَها – بإرادتك الحرَّة إلى سيئة . . نهاكَ الله عنها. فالحسنة أَمَركَ الله بها . . فهى من عند الله . . أما السيئة؛ فرغم أنها من عند الله . . كأحداث؛ إلاَّ أنَّكَ أنت الذى حَوَّلْتَ الأحداث إلى أن أصبَحَت سيِّئات. ويقول تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

ويقول ابن كثير: «قوله: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أى خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد . . ﴿ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى قحط وجدْب ونقص فى الثمار والزروع . . . ﴿ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ أى من قِبَلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك . . . فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أى الجميع بقضاء الله وقَدَره، وهو نافذ فى البرِّ والفاجر والمؤمن والكافر . . . ثم قال تعالى مُنكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلَّةَ

فَهْم وعِلْم، وكثرة جهل وظلم ﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ » (١).

ويقول القرطبى: « قوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ... والخطاب للنبى ﷺ والمراد أمَّته. أى ما أصابكم يا معشر الناس من خِصْب واتساع رزق، فمن تَفضُّل الله عليكم، وما أصابكم من جَدْب وضيق رزق فمن أنفسكم، أى من أجل ذنوبكم وَقَعَ ذلك بكم » (٢). فقد عَصَيْتُم الله بارتكابكم المعاصى؛ وقد قَدَّر سبحانه منذ الأزل، أن مَنْ عمل حسنةً فلنفسه، ومن عمل سيئةً فعليها . .

١٠ - وفى تفسير الآيتين الكريمتين: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: ٥٠ - ٥١]؛ صورة أخرى من صُور الجزاء العادل لله تعالى، وأنه لا يوجد أى نوع من الإجبار فى الأعمال الاختيارية للإنسان. ففى هذا القضاء، يكون الجزاء من جنس العمل. « يقول تعالى ذكره مُخْبِرًا عن قَتْل الملائكة لهؤلاء المشركين الذين قُتلوا ببدر، إنهم يقولون لهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم، ذوقوا عذاب الله الذى يحرقكم. هذا العذاب لكم بما قَدَّمَتْ أيديكم، أى بما كَسَبَتْ أيديكم من الآثام والأوزار، واجتَرَحْتُم من معاصى الله أيام حياتكم. فذوقوا اليوم العذابَ وفى معادكم عذاب الحريق. وذلك لكم بأن الله ليس بظلام للعبيد لا يُعاقبُ أحدًا من خَلْقه إلاَّ بجُرْم اجْتَرَمَه. ولا يعذبه إلا بمعصيته إيَّاه، لأن الظلم لا يجوز أن يكون منه » (٣).

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - م ١ ص ٥٠١.

(٢) القرطبى - الجامع لأحكام القرآن - م ٣ - جـ ٥ - ص ١٨٤.

(٣) الطبرى - جامع البيان - م ٦ - ج ١٠ - ص ١٧.

فقد « جاء في الحديث الصحيح ... عن رسول الله ﷺ، أن الله تعالى يقول « يا عبادى إنما هى أعمالكم أُحصيها لكم فَمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » [١].

فـ « قوله تعالى ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ هو بيان للمصير الذى صار إليه أولئك المشركون الذين أَذَلَّ الله كبرياءهم فى هذا اليوم، يوم بدر، وهو مصير مشؤوم، يلقى بهم فى سواء الجحيم، حطبًا لجهنم. ووقودًا لسعيرها. وذلك الذى حَلَّ بالمشركين من هوان فى الدنيا، وعذاب فى الآخرة، هو جزاء لما كان منهم، وما قَدَّمَتْ أيديهم من سوء ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ » [٢].

ففى هاتين الآيتين الكريمتين، يتبين بوضوح؛ أن ما يُقَدِّرُه الله على العباد، هو جزاء أعمالهم. فهؤلاء الكافرون. الذين يعذبهم الله تعالى فى المعركة، عن طريق الملائكة الذين يَضْربون وجوههم وأدبارهم؛ وكذلك عن طريق المسلمين الذين يُنازِلُونَهم فى المعركة .. ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبه: ٥٢].

فـ « إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف وإذا وَلَّوْا أدركتهُم الملائكة يضربون أدبارهم ... وهذا السياق وإن كان سببه وقْعة بدر ولكنه عام فى حق كل كافر ولهذا لم يُخصِّصْهُ تعالى بأهل بدر » [٣]. لم يصِبْهُم هذا العذاب مُضافًا إليه .. ما ينتظرهم من عذاب الآخرة؛ إلاَّ جزاءَ ما

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن – م ٢ – ص ٣٤٦.

(٢) عبد الكريم الخطيب – التفسير القرآنى للقرآن – الكتاب الخامس – ج ٩، ١٠ – ص ٦٣٦.

(٣) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م ٢ – ص ٣٠٥.

قَدَّمَتْ أيديهم من فساد فى الأرض، وكُفْر بالله الذى أنعم عليهم بالوجود فى هذا الكون .. وبهذه النعَمَ الكبرى التى سَخَّرها لهم. فهذا الذى يُصيبهم من العذاب، هو نتيجة كُفْرِهم وفسادهم. وإصرارهم على الكفر والفساد. فلا يُعِّذبُ الله هؤلاء دون سبب .. ولكن أعمالهم هى التى أَرْدَتَهم فى هذا العذاب.

١١ - قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ** ﴾ [الانعام: ١٠٧] هذه الآية الكريمة، تدل فى ظاهرها على الجبريَّة فهى تدل على أن هؤلاء، قد أشركوا بمشيئة الله .. أى أنه هو الذى قدَّر ذلك لهم، فجعلهم مشركين .. لكن حقيقتها غير ذلك وفى تفسير هذه الآية .. يقول ابن كثير: « يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته ... اعلم أن لله حكمة فى إضلالهم [أى المشركين] فإنه لَوْ شاء لهدى الناس كلهم جميعا ولو شاء لجمعهم على الهدى ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا** ﴾ أى بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤهُ ويختاره .. لا يُسْأل عمَّا يفعل وهم يُسْألون » [١].

وبعد هذا التوضيح المختصر، من ابن كثير؛ يظلُّ التساؤُل موجودًا؛ وهو: لماذا لم يَشأْ الله سبحانه عدم شركهم ..؟ لماذا شاء أن يشركوا أو أن يكونوا مشركين ...؟ ولماذا لم يشأ أن يكونوا مؤمنين ... والإيمان أفضل من الشِّرْك ..؟.

وتفسير هذه الآية الكريمة وما شابَهَها، لا يكون إلاَّ بالتحليل: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا** ﴾ ومن هنا نفهم أن الله شاء عكس ذلك .. أى شاء لهُم الشرك .. وكان من الممكن أن يشاء لهم الإيمان. إذًا يبدو هناك قضاء إجبارى من الله بالشرك على هؤلاء. فلماذا إذًا يُعذَّبون بشركهم .. ما دام الله هو الذى قضى عليهم وقدَّرَ ذلك بطريقة إجبارية ..؟ وبذلك يُصبحُ كفرهم، خارجا عن إرادتهم. ولذلك قال بعض الكفار. ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا**

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - م ٢ - ص ١٥٥.

من شَيْءٍ ﴾ [الانعام: ١٤٨]. فيكون ذلك – وتعالى الله علوا كبيرا عمَّا يمكن أن يُقال – ظلمًا. والله سبحانه لا يظلم الناس شيئًا – كما جاء فى كثير من الآيات .. وكما نحس فى حياتنا وحياة العالم. ويقول الله فى حديثه القدسى: «يا عبادى إنى حرَّمتُ الظلم على نفسى وجَعلْتُه بينكم مُحرَّمًا ..» (١).

إذًا ما هى الحقيقة .. وكيف يُحَلُّ هذا الإشكال العقائدى العقلى ..؟ .. لا يُحَلّ إلاَّ بالنَّظْرة الكلية الشاملة لهذا الكون .. وَفَوْقَه خالقُه ومُنَظمُهُ.

لذا .. فإنه يمكن القَوْل، أن الله سبحانه؛ لو شاء لما خلق هذا الإنسان؛ ولكن إذا شاءَتْ إرادَتُه وخلقه فِعْلاً .. فكانت إرادتُه من الممكن أن يجعله على غير هيئته وصفاته التى هو عليها الآن. فكان من الممكن أن يجعله كباقى الحيوانات .. يأكل ويشرب ويتناسل ويموت – بدون عقل ولا إرادة ولا حرية. لكن مشيئته سبحانه أرادت غير ذلك .. فقد شَاءَتْ أن يخلق إنسانًا ذا جسد متحرك، له صفات جسديَّة مُعَّنة وفوق هذا الجسد عقل .. ويحتوى على إرادة .. وله حرية التصرف بهذا الجسد الذى خلقه الله له. ثم إن الله سبحانه لَمَّا شاء، وخَلَقَ الإنسان هكذا؛ أرادَ أن يُدرِّبَه على استخدام هذه المعطيات، كما أَرادَتْ مشيئتُه – أى فى طريق الخير – فأرسل إليه الرسُل، وأنزل إليه الكتب التى تُرشدُه إلى طريق الصواب ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا من قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ❊ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢٠٨ – ٢٠٩] لذا جعل بعد ذلك له موعداً ليحاسبَه على ما أعطاه .. وهل استخدمه كما طلب منه أم لا؛ ثم كان بعد الحساب، الجزاء، حتى لا يتساوى مَنْ أطَاعَ مع من عَصَى فَيُثَابُ مَنْ أطاع وسار سَيْرًا حَسَنًا، ويُعَاقَبُ مَنْ عَصَى واستكبر وعاث فى الأرض فساداً.

إذًا لو شاء الله ما أشرك المشركون وما عَصَى العاصون؛ وذلك بأن كان

---

(١) عن: المرجع السابق م ٢ – ص ٤٠٠ والحديث عن أبى ذر عن النبى ﷺ عن ربه عز وجل.

جعلهم كالحيوانات غير الناطقة أو الجمادات التى لا تعقلُ ولا تُدْرِك .. والتى هى منزوعة الإرادة الحرَّة. لو شاء الله لجعلهم هكذا ..! وحين يكونون كذلك، فإنهم لن يشركوا .. ولن يكونوا مشركين، لأن الحيوانات أو الجمادات لا تُدرك .. وبالتالى .. لا تُحاسَب – وفى نفس الوقت لأنها لا تعمل الشر ولا تعمل الخير، بل هى موجودة بقدرة الله، لاستكمال سُنَّة الحياة فى الأرض .. وفى هذا الكون. فلو شاء الله لجعلهم بدون عقول وبدون إرادات؛ وإنهم حينذاك لن يكونوا مشركين. لذا فإن الله تعالى لم يُردُ أن يجعلهم كذلك، بل شاءَتْ إرادته أن تجعلهم من نوع الإنسان الذى يعقل ويتصرف بعقله وإرادته وكل المعطيات التى وهبها الله له، فى هذا الكون، ليكون خليفةً له فى الأرض. وهذه مِنَّةٌ كبرى .. أن وهبهم الله كل ذلك، وجعلهم من نوع الإنسان الذى فضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

فإذا رجع هؤلاء إلى أنفسهم، وتفكَّروا بما أعطاهم الله من عقل؛ وعرفوا نعمة الله عليهم؛ لرجعوا عن غيِّهم وكفرهم وعنادهم .. الذى جعلهم يُصرُّون على السَّيْر فى طريق الشيطان – طريق الغىِّ والضلال؛ حتى أصبحوا مشركين.

لذلك يقول الله تعالى فى نهاية الآية الكريمة، مخاطبًا رسوله محمداً ﷺ ﴿ **وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ «أى حافظًا تحفظ أقوالهم وأعمالهم» [١]. أى أننا لم نجعلك يا محمد حفيظًا على هؤلاء، تمنعهم من أعمالهم السيئة، التى أدَّتْ بهم فى النهاية إلى الشِّرْك. ولم نجعلك تجبرهم على أعمال معينة؛ بل تركنا لهم حرية العمل بما أعطيناهم من إمكانيات «﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى موكَّل على أرزاقهم وأمورهم. إنْ عليك إلاَّ البلاغ. كما قال تعالى ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** ﴾ وقال ﴿ **إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾» [٢].

(١، ٢) ابن كثير – تفسير القرآن – ص ١٥٥ م٢.

هذه هي الحرية . . وهذا هو العقل الحر والإرادة الحرة. فإذا جحد الإنسان بعد ذلك وأفسد في الأرض وأشرك بالله، الذي منحه كل هذه الفضائل؛ فلا يلومَنَّ إلاَّ نفسه، فهو الذي أوقع نفسه في الشِّرْك وَعِلمَ الله ذلك منذ الأزل؛ فشاءت إرادته أن يكون مشركًا . . لا ظُلمًا ولا جبرًا؛ ولكن حسابًا وجزاءً . . ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [يونس: ٤٤].

١٢ - وهذه آية أخرى، من نفس نوع الآية السابقة، الذي يبدو فيها الإجبار؛ وهي التي يقول الله تعالى فيها: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ولكن عن طريق التحليل تتبين الحقيقة.

جاء في كثير من الآيات القرآنية الحكيمة، أن الله سبحانه، يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء ونقول إن هذا القضاء من الله . . أو هذا القَدَر . . أو التقدير، ليس إجبارًا ولا حُكْمًا جَبْريًّا على بعض من الناس، بأن يكونوا ظالمين أو بأن يكونوا ضَالِّين وآخرون يكونون مهتدين كما يظن بعض الناس فالله سبحانه يقول إنه يضل الظالمين . . ولم يَقُلْ أنه يضل الناس. فالناس عمومًا، منهم الظالمون ومنهم الخيِّرون؛ ولكن الله لا يضل إلاَّ الظالمين من الناس ﴿ **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ** ﴾.

هنا يتبين أول بصيص من الضوء، يدل على عدم الجبرية. فهناك أشخاص لهم صفات معينة. هم الذين يضلهم الله.

إن الذي يشاء الله أن يضلَّه، هو الذي يسير في طريق الشر والضلال ويُصِرُّ على السَّيْر في هذا الطريق؛ قال تعالى: ﴿ **وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الواقعة: ٤٦]؛ وأما الذي يريد أن يهديه، فإنه هو الذي يسير في طريق الخير والهدى والرشاد. ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ [الليل: ٥ - ١٠]. ومما يؤكد ذلك ما جاء في هذه الآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها

﴿ ويُضِلُّ اللَّهُ الظَّالمينَ ويَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشَاءُ ﴾. هنا وجدنا أن الذى يضله الله، هم الظالمون .. وأتْبَعَ ذلك بقوله ﴿ ويَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشَاءُ ﴾؛ فإن ما يفعله الله بمشيئته، هو ما جاء فى الجزء السابق من الآية؛ وهو إضلال الظالمين، وتثبيت المؤمنين المهتدين. فهذا هو الذى شاءَهُ الله سبحانه .. لأن هؤلاء الضالِّين لا يستحقُّون إلاَّ ذلك؛ فقد أصْبَحَتْ هذه الصفة مُنْطَبِقةً عليهم تمامًا - صفة الظلم. فَهُم من أصرُّوا على ارتكاب الكبائر والأخطاء والفساد فى الأرض ولا يرتدعون بنصيحة أو توبة. فهؤلاء يُضِلُّهم الله لأنه يعلم بعِلْمِه الأزلى السابق، أنهم سيظلون على حالهم من الظلم إلى نهاية حياتهم، وأنهم لن يرجعوا عن غيِّهم.

وهذا الضلال .. يرجع إلى الدنيا والآخرة. فقد يُضِلُّهم الله فى الدنيا، فينالون شيئًا من الجزاء بأن يجعلهم يعيشون فى ضلال وعَمَى .. تائهين لا يعلمون ما يفعلون .. يتخبَّطون فى جوانب الحياة، تحت رحمة ملذَّاتهم أو عاداتهم القبيحة، أو ما تَجُرُّه عليهم أعمالهم السيئة الفاسدة. وقد يضلهم الله - بالإضافة إلى ذلك - فى الآخرة .. وهذا هو الضلال المبين فيضلهم عن الصراط .. ويضلهم عن طريق الجنة .. ويهديهم إلى طريق النار .. لكى يدخلوها لتلقىِّ العذاب الأليم، بما كانوا يظلمون.

أما الذين آمنوا فيهديهم الله ويثبت أقدامهم فى الدنيا والآخرة. فيُحبِّبُ إليهم الخير، ويجعل للإيمان فى قلوبهم حلاوة واطمئنانًا. وكذلك فإن الله يعلم بعلمه الأزلى السابق، أنهم سيستمرُّون فى أعمالهم الطيبة حتى نهاية حياتهم، وفى الآخرة .. يهديهم إلى طريق الجنة خالدين فيها. يقول ابن كثير: « ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾. قال قتادة ... أما الحياة الدنيا فَيُثبِّتهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ فى القبر، وكذا رُوِىَ عن غير واحد من السلف »[1].

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - م ٢ - ص ٥١٦.

١١م – ونعو: إلى الآية الكريمة، التي أتت في التحليل السابق، والتي يبين الله تعالى فيها كيف حاول هؤلاء المشركون أن يُبّرروا شِرْكَهُم وأعمالهم الفاسدة. وهي: ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الانعام: ١٤٨ – ١٤٩]. فهي من الأهمية بأن نعود إليها، ونحاول تحليلها – هي والآية التي تليها؛ لأن البعض من الناس، يتخذون مما في معناها، مبرِّرًا لأعمالهم الخاطئة ويقولون هذا ما قَدَّرَه الله علينا.

وذلك بقولهم أن ذلك من عند الله – أو بقَدَرِ الله، أو أن هذا هو ما قضاه الله عليهم أو شاءَهُ لهم. ولذلك يقول الله تعالى لهم في نهاية هذه الآية الكريمة ﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ من أين عَلمتُم أن الله كتب عليكم ذلك أو قدَّره لكم أو شاء لكم ذلك أو ما كيفية هذه الكتابة؟ فإن كان عندكم علم بذلك، «أي بأن الله راضٍ عنكم فيما أنتم فيه (بمعنى أنه هو الذي قَدَّره عليكم) ﴿ **فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ أي فتظهروه وتبيِّنوه وتبرزوه» [١]، وتقولوا من أين أتَيْتُم به.

لكنكم أيها الكافرون، لن تستطيعوا، لأنكم ﴿ **إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ** ﴾ «أي الوهم والخيال. والمراد بالظن ههنا الاعتقاد الفاسد ﴿ **وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ** ﴾ تَكْذبون على الله فيما ادَّعَيْتُموه» [٢]؛ وتغالطون أنفسكم. لذلك قال الله تعالى في الآية التالية ﴿ **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾. والحجة البالغة، التي أخرَصَهُم الله بها هي قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ فإنهم لن يستطيعوا أن يُجيبوا على هذه الحجة

(١، ٢) ابن كثير – تفسير القرآن – م ٢ – ص ١٧٨.

البالغة التى أنزلها الله على رسوله ﷺ، ليُبلِّغها. ولكن يجب أن يعلموا حقيقة الأمر؛ فإن هذا الذى قَدَّرَه الله لهم، ما هو إلا أعمالهم أحصاها عليهم منذ الأزل، بعِلْمِه الأزلىِّ السابق، الذى يعلم به ما سَيكسِبُه أى إنسان طوال حياته – كما سبق توضيحه.

وأيضا .. «﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ أى له الحكمة التامَّة والحجة البالغة فى هداية من هَدَى وإضلال من ضَلّ» [1]؛ وذلك بأنه تعالى، يعرف من يسير فى طريق الهُدَى .. ومن يسير فى طريق الضلال. فيهدى من يسير فى طريق الهدى .. ويُضلُّ من يُصرُّ على السَّيْر فى طريق الضلال «قال الضحاك .. لا حجة لأحد عصى الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده» [2].

﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾؛ بأن نَزَعَ منكم الإرادة الحرَّة، وجعلكم ملائكة – مثلا، أو أى شئٍ آخر غير الإنسان وقد سبق تحليل ذلك .. فمشيئة الله ليس فيها جبر ولا ظلم.

١٣ – والآيات الآتية، يَظْهَرُ فيها بوضوح .. القضاء والقدر، والرضا به، خَيْره وشَرِّه .. حلوه ومُرِّه؛ وأنه لا يتعارض مع العمل الحر للإنسان. يقول تعالى .. وهو سبحانه فى مجال ذكر أمر سيدنا يعقوب وابنه يوسف وباقى أبنائه:

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٦ – ٦٨].

(١، ٢) نفس المرجع السابق.

ففى الجزء الأول من الآية الأولى، ما يدلُّ على العمل الحر للإنسان، الذى من المحتمل أن يكون فيه الخطأ والصواب. فإن يعقوب عليه السلام يقول لأبنائه عندما طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم الأصغر، إلى حاكم مصر، وهو العزيز .. يوسف، وهم ما زالوا لا يعرفونه. وذلك لكى يشتروا الحبوب فى أعوام القحط، التى حدثت فى ذلك الحين .. قال ﴿ **لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ** ﴾ فهو يحذرهم من ارتكاب السوء كما حدث من قبل مع أخيهم يوسف. أما فى الجزء الثالث من الآية الكريمة، فإن يعقوب يعترف بقضاء الله الجبرى .. إن حدث لابنه هذا، فيقول ﴿ **إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ** ﴾ فهذا يكون – إذا ما حدث – أمرٌ لا دَخْلَ لكم فيه، فهو قضاء إجبارى من الله تعالى .. وأنا أرضى بـه.

وكذلك فى الآية التالية، عندما قال يعقوب لبنيه ﴿ **لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ** ﴾ هذا أيضا مما يتعلق بأعمال الإنسان الحرَّة. فينصحهم أبوهم بعدم الدخول من باب واحد، زيادةً فى الاحتياط . خوفًا عليهم من أى سوء. وهذا ما يجب على أى إنسان .. أن يحافظ على نفسه وعلى أبنائه، ويُبْعَدَهُم عن مواطن الخطر والسوء، للنجاة من أى مكروه. ولكن يعقوب يتدارك الأمر، ويعرِّفَهم أن ذلك التَحوُّط والأخْذ بالأسباب، لن يغنى عن وقوع المكروه إن أراد الله ذلك. لأنه فى تلك الحالة، يكون قضاءً وقدرًا .. لا مَفرَّ منه .. ولا دَخْلَ للإنسان فيه، فقال ﴿ **وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ﴾ ثم بعد ذلك عَرَّفَهُم أنه يرضي بقدر الله على أى وجه من الوجوه، فهو متوكلٌ عليه، ومُفوِّض الأمر كله لله، بعد الأخْذ بالأسباب ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾.

ويؤكد الله سبحانه هذه المعانى كلها في الآية التالية لهاتَيْن الآيَتيْن السابقَتينْ، فيقول: ﴿ **وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ**

اللَّه من شَيْءٍ ﴾ إن أراد الله بهم سوءًا أو أراد بهم خيرًا. فالأمر فى النهاية له وحده. وإذا قضي أمرًا فإنما يقول له كن فيكون. إلاَّ أنَّ ذلك، لا يمنع من الأخذ بالأسباب .. والعمل .. ويدخل فى ذلك النُّصْح والتوبة، وغير ذلك من وسائل .. أَمَرَنا الله بها فى كتابه العزيز .. وعلى لسان رسُله الكرام عليهم الصلاة والسلام؛ حتى تكون أعمالنا حسنة وخيرّه.

لذلك قال الله تعالى، فى الجزء الأخير من هذه الآية الكريمة ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أى أن يعقوب عليه السلام، يعلم كل ذلك .. ويعلم أن قضاء الله، لا بُدَّ أن يتحقَّق .. لكنَّ ذلك .. لا يمنع من العمل. فالعمل هو ميزان الشخص، الذى سيحدد مصيره فى النهاية أمَّا ما يحدث له رغمًا عنه – بقضاء الله؛ فلا حساب عليه، ولن يستطيع أحد رَدَّه. ومن القضاءات ما فيه اختبار وبلاء للإنسان، ومنها ما هو قاطع ونهائى. الأول كالإبتلاء بالأمراض والهزائم والكوارث؛ والثانى كالموت.

ويقول ابن كثير: ﴿ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ** ﴾ أى تَحْلِفُون بالعهود والمواثيق ﴿ **لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ** ﴾ إلا أن تُغْلَبوا كلكم ولا تقدروا على تخليصه .. إنه أمَرَ بنيه لَمَّا جَهَّزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد وَلْيَدخُلوا من أبواب متفرقة. فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب .. إنه خَشِىَ عليهم العين. وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء ... وقوله ﴿ **وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ أى إن هذا الاحتراز لا يَرُدُّ قدر الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا لا يُخالف ولا يُمانع ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا** ﴾ قالوا هى دَفْع إصابة العين ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ** ﴾ قال قتادة والثورى .. لذو علم يَعْلَمُه [أى له ولذاته] وقال ابن جرير .. لذو علم

لتعليمنا إياه [أى ليكون مثالاً للناس يحتذونه] ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ »[1].

١٤ - وإذا فحصنا الآية التى يقول فيها الله سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ [الرعد : ١١] نجد الاكتساب والحرية عند الإنسان واضحين فى الجزء الأول من الآية . ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ فتغيير أحوال القوم من حال إلى حال، مترتب على أعمالهم الحرَّة، التى هى أساسًا، نتيجة ما بأنفسهم . . أى نيَّاتهم . وبعد ذلك نجد أن الله سبحانه، يستطيع بقدرته وجبروته وإحاطته وقهره . . إذا أراد بقوم سوءًا، فلا يمكن لأى شئ، مهما بلغت قوته . . ردَّ ذلك . ويمكن أن يكون ذلك السوء على معنيَيْن :

المعنى الأول : هو من نوع القضاء الجبرى . . أو الجبرية الكونية؛ الذى يحلُّ بالإنسان دون اكتساب كما تقدم، مثل المرض والموت . . إلخ . والمعنى الثانى - هو أنه لا رجوع فى قرار الله سبحانه، لمعاقبة الإنسان . . نتيجة أعماله المكتسبة السيئة . ولن يستطع أى شئ أن يحول دون هذا العقاب . وذلك إمَّا فى الدنيا أو فى الآخرة .

وقد جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة : « قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال أَوْحَى الله إلى نبىٍّ من أنبياء بنى إسرائيل، أَنْ قُلْ لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحوَّلون منها إلى معصية الله إلاَّ حَوَّلَ الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون . ثم قال إن تصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ »[2]. وبالتأكيد يكون العكس .

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - م ٢ - ص ٤٦٦ .

(٢) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - م ٢ - ص ٤٨٦ .

أى إذا كـان أحـد فى مـعـصـيـة، وتحـوَّل إلى الطاعـة؛ حَـوَّلَ الله عنه مـا يكره إلى مـا يحـب.

١٥ – وهناك نقطة مـتـصلة بالقـضـاء والقـدر، وهى الاسـتـغـفـار واللطف الإلهى. ففى الآية الكريمة التى يقول الله تعالى فيها: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ [التوبة: ١١٣] يتبين أن الدعاء والاستغفار، لن يكون له نتيجة ولا رحمة من الله، ولا لطف بالعَبْد إلاَّ إذا كان العَبْد يسير فعلاً فى طريق الخير. فإذا ما تَردَّى فى بعض الهفوات والأخطاء .. فهذه هى التى يستغفر الله فيها ليتوب عليه. أما مرتكبو الكبائر، والمصُرّون على الأخطاء، والكفار؛ فلا استغفار لهم ولا لطف بهم؛ حتى ولو أتى هذا الاستغفار .. وهذا الدعاء، من النبى ﷺ، أو من المؤمنين الصادقين. فكلٌّ مسؤول عن عمله. ولا لطف ولا رحمة من الله، إلاَّ للسَّائرين فى طريق الإيمان .. طريق الأعمال الخيِّرة، لا الجالسين فى مستنقعات العصيان.

يقول ابن كثير، ناقلاً عن عدد من الرواة .. «لَمَّا حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أُميَّة فقال «أى عم، قل لا إله إلاَّ الله – كلمةً أحاج لك بها عند الله عز وجل». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أميَّة يا أبا طالب .. أتَرغَبُ عن ملَّة عبد المطلب؟ فقال أنا على ملَّة عبد المطلب . فقال النبى ﷺ «لأَسْتَغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك» فَنَزَلَتْ ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ [١] فحتىَّ أقرب الناس إلى النبى ﷺ، وأقارب الصحابة الذين آمنوا معه، لا يستطيعون .. ولا يحقُّ لهم أن يستغفروا لأقرب الناس

(١) ابن كثير – تفسير القرآن – م ٢ – ص ٣٧٥.

إليهم .. من الذين ظلوا مشركين. لماذا ..؟ لأن كل إنسان، لا بد أن ينال جزاء عمله الحر، بعد أن تبين أمام الجميع .. طريق الخير وطريق الشر.

فـ «قُربى الدم والنسب إذن لا تُنْشِئُ رابطة، ولا تصلح وشيجة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم وولاء المؤمن يجب أن يتمخَّض لله الذى عقد معه تلك الصفقة [أى الصفقة بين الله المشترى والمؤمن البائع] وعلى أساس هذا الولاء الموحد تقوم كل رابطة وكل وشيجة» (١).

ثانيا: القضاء والقدر فى الأحاديث النبوية:

وهذه أيضا، بعض الأحاديث النبوية الشريفة، المتعلِّقَة بمشكلة القضاء والقدر - وهى الركن الثانى من الدين - لقراءتها وتَدبُّر معانيها؛ ثم القيام بعرض شروح وتحليلات لها، لاستكمال الفهم وزيادة المعرفة، بجميع جوانب هذه المشكلة.

وسوف نعرض نص الحديث النبوى الشريف، ثم نُتْبِعُه بالشرح والتحليل.

الأحاديث النبوية .. شرح وتحليل:

الحديث الأول:

«عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القَدَر، فنزلَتْ: ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٨ - ٤٩] (٢).

نجد فى هذا الحديث الشريف معنى الجزاء، فلا يدخل الإنسان النار إلا جزاء ما اقترفه من أعمال خاطئة فى حياته الدنيا. فالله سبحانه، لا يخفى عليه شئ من

---

(١) سيد قطب - فى ظلال القرآن - المجلد الثالث - جـ ١١ - ص ١٧١٤ - الطبعة الشرعية ٢٦ سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م - دار الشروق - القاهرة

(٢) الحافظ المنذرى - مختصر صحيح مسلم - ص ٢٤٦ - الدار الكويتية للطباعة والنشر - دولة الكويت طبعة أولى سنة ١٩٦٩م.

أعمال الإنسان أو غيرها من أحداث فعنده كل شئ بمقدار. فالقَدَرُ هنا فى قوله تعالى ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾؛ هو التقدير .. أى الحساب الدقيق. فالله يُقدِّرُ عمل العَبْد، ويُعطيه عليه الجزاء الذى يستَحقُّه، ولا يوجَدُ أعْدَلُ من الله تعالى .. لكى يقدِّرُ المخطئ من المصَيب، أو العمل الخاطئ من العمل الصالح.

فلا يُسْحَبُ الإنسان على وجهه، مَسُوقًا إلى النار، إلاَّ جزاء ما ارتكبه من أخطاء فى الحياة الدنيا؛ تلك الأخطاء، التى قدَّرها العزيز الحكيمُ الحكم العَدْل .. الله العلىّ العظيم. وهذا هو القدر، الذى قدَّره الله سبحانه بقدرته التى لا تتناهى، وعلمه المحيط، قبل أن يحدث من الإنسان فهو وحده الذى يحيط بكل شئ علمًا. وهذا هو ما سَجَّله سبحانه في اللوح المحفوظ منذ الأزل .. ﴿**أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٤] إذًا .. هذا هو نوع القضاء والقدر، المترتِّبُ على أعمال الإنسان فهو علم إلهى قديم، بكل ما سوف يفعله أى إنسان، فى كل تاريخ حياته الدنيوية.

ونجد ابن حجر العسقلانى، يقول فى شرحه: «إن كل شئ لا يقع فى الوجود إلا وقد سَبَقَ به علم الله ومشيئته .. فأفعالنا وإن كانت معلومةً لنا ومرادةً منا، فلا تقع مع ذلك منا إلا بمشيئة الله، وهذا ما ذكره طاوس مرفوعًا وموقوفًا مُطابقٌ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [١].

وهنا يتبين لنا، أن مشيئة الله؛ هى وقوع تلك الأعمال التى تقع منا بإرادتنا؛ وقد سبق علم الله بوقوعها. فليس سبق الله بعلمها، بمُلزمٍ لنا بفعلها؛ أو هو قهر وإجبار على فعلها ..

---

(١) العسقلانى – أحمد بن على بن حجر – فتح البارى شرح صحيح البخارى – جـ ١١ – ص ٥٨٦ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط ١ – ١٤٢٠ هـ: ١٩٨٩م.

الحديث الثانى:

أما إذا أَتَيْنا إلى الحديث النبوى الشريف الثانى، الذى رُوِىَ عن علىٍّ كرَّمَ الله وجهه، حين قال: «كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعَدَ وقَعَدْنا حوله ومعه مِخْصَرة (عصا خفيفة) فنكَّسَ فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما منكم من أحد .. ما منكم من نفس منفوسة إلاَّ وقد كَتَبَ الله مكانها من الجنة والنار. وإلاَّ وقد كُتِبَتْ شقيَّةً أم سعيدة» قال: فقال رجل: يا رسول الله أَفَلاَ نمكث على كتابنا وندع العمل ..؟ فقال: «مَنْ كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة وَمَنْ كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. فقال: اعملوا فكلٌّ مُيسَّر. أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة. وأمَّا أهل الشقاوة فيُيَسَّرون لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ**﴾ [الليل: ٥ - ١٠] (١).

فالجزء الأول من الحديث هنا، يدل فى ظاهره، على الإجبار. أى أن كل نفس قد سُجِّلَتْ عند الله تعالى، وكُتِبَ مكانها فى الدار الآخرة، سواء فى الجنة أو فى النار. ولذلك سأله أحد الحاضرين، وقال له .. ما دام الأمر كذلك (أَفَلاَ نمكثَ على كتابنا وندع العمل ..؟)، فلا داعى للعمل أو الاكتساب أو العبادة والجهاد .. إلخ، ما دام قدرى لا مَفرَّ منه، وهو مُسجَّل الآن، فى اللوح المحفوظ.

لكن الرسول ﷺ قال له لا .. لا تمكثوا، وَتَدَعُوا العمل بل اعملوا وكافحوا. فكل إنسان مُيَسَّر لكلا الطريقين طريق الخير وطريق الشر؛ وهو لا يعلم ماذا كُتِبَ له فى اللوح المحفوظ، لأنه غيب فى علم الله فقط أو - بمعنى آخر - مُخَيَّر بين هذين الطريقين؛ ويستطيع بإرادته الحرَّة أن يسير فى أىٍّ منهما.

---

(١) الحافظ المنذرى - مختصر صحيح مسلم - ص ٢٤٧.

وسيكون كل إنسان مُيسَّرًا للسَّيْر فى الطريق الذى اختاره، والذى سيحدِّد مصيره فى النهاية - لا يعوقه عائق. وهذا الطريق حتى نهايته، معلوم لدى الله تعالى، بعلمه الأزلى القديم المحيط . وقد قال أحد الصحابة: (إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول «إن أول ما خَلَقَ الله القلم ثم قال له اكتُب فجرَى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة») [1].

فإذا كان الله قد عَلِمَ منذ الأزل أن إنسانًا ما، سيسير فى طريق أهل الجنة ويعمل بأعمال أهل الجنة، فسَيكْتُبه قبل أن يُخلَق أو يوجَد فى الكون، فى سجل أهل الجنة. وإذا كان يعلم بعلمه الأزلى، أنه سوف يسير فى طريق أهل النار، فسيكون هذا هو طريق الشقاء، وسَيُكْتَبُ عند الله شقيًّا من أهل النار.

إذًا الأمر كله هنا يتوقف أساسًا على أعمال الإنسان. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ** ﴾ أى من سار فى طرق الخير والصلاح ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ أى نجعل له هذا الطريق سهلاً مُحبَّبًا. ﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ** ﴾ بَخلَ بماله وبصحته وبعقله، ولم يستخدمها فى طريق الخير، واستخدمها فى طريق الشر، واعتبر نفسه غنيًّا بهذه الأشياء التى أعطاه إياها الله، واستغنى بها عن النعيم الأخروى، ونَسىَ أوامر الله وعبادته. ﴿ **وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ** ﴾ هذا الشخص ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ فسيكون أمامه طريق الغواية والهلاك.. والمُتْعة واللذَّة الدنيوية - سهلاً - مُنغمسًا فيه، مفتوحًا أمامه ينهلُ منه بكل ما أوتىَ من الحياة. فهذا الشخص يكون قد تَرَكَ طريق الخير الموجود والواضح أمامه، وسار فى طريق الشر، الذى سيؤدى به فى النهاية إلى العُسر والشقاء - سواء فى الدنيا أو فى الآخرة، ثم إلى عذاب النار. لذلك يُكْتَبُ عند الله من أهل الشقاوة، لما يعلمه الله بعلمه الأزلى، من أنه سيسير فى هذا الطريق السَّيِّئ، الذى يؤدى به فى النهاية، إلى ذلك المصير.

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - م ٤ - ص ٢٧٠.

ونجد العسقلانى يقول فى شرحه « فتح البارى »، إن « حاصل السؤال : ألاّ نترك مَشقَّة العمل فإنَّا سنصير إلى ما قُدِّرَ علينا، وحاصل الجواب : لا مَشقَّة، لأن كل أحد مُيسَّرٌ لما خُلقَ له، وهو يَسيرٌ على من يسَّره الله عليه . قال الطيبى : الجواب من الأسلوب الحكيم، منعهم عن تَرْك العمل وأَمَرهُم بالتزام ما يجب على العبد من العبوديَّة، وزَجَرَهُم عن التصرف فى الأمور المغيبة .

وفى آخر حديث عمر عن الفريابى « فقال عمر فَفيمَ العمل؟ فقال : كلٌّ مُيسَّر لما خُلقَ له وأن عمله فى العاجل دليل على مصيره فى الآجل » [١] والإنسان لا يعلم ما كُتبَ له، « بل طوى الله علم الغيب عن خَلْقه وحَجَبَهُمْ عن دَرَكه، كما أخفى عنهم أمر الساعة فلا أحد يعرف متى حين قيامها ... وفى أحاديث هذا الباب أن أفعال العباد وإن صَدَرَتْ عنهم لكنها قد سبق علم الله بوقوعها بتقديره » [٢] .

الحديث الثالث :

أما الحديث الثالث الذى يقول فيه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجْمَعُ خَلْقُه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون فى ذلك عَلَقَةً مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغةً مثل ذلك . ثم يرسل الله المَلَكَ فينفخ فيه الروح ويؤمَرُ بأربع كلمات : يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقىٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » [٣] .

---

(١) العسقلانى - فتح الباري - ص ٦٠٨ - ٦٠٩ .   (٢) المرجع السابق : ص ٦٠٩ .

(٣) الحافظ المنذرى - مختصر صحيح مسلم - ص ٢٤٨ - ٢٤٩، الأربعون النوويه وشرحها - الإمام محى الدين يحيى بن شرف النووى دار الخلفاء - المنصورة - مصر ط ١ سنة ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م .

ويمكن تقسيم ما أشار إليه هذا الحديث الشريف إلى قسمين: الأول يعبِّر عن القضاء والقدر بنوعَيْه: الجبرى، والمترتب على مكتسبات الإنسان. فالرزق والأجل، من قضاء الله الخالص الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه. إذًا فـ «المراد من كتابة الرزق تقديره قليلاً أو كثيرا، وصفته حلالاً أو حرامًا، وبالأجل هل هو طويل أو قصير، وبالعمل هل هو صالح أو فاسد» [1]. أما الأعمال .. فإن الله يكتبها فى سجلهِ الأزلى، بناء على العلم الإلهى الأزلى المحيط. فالله يعلم كل الأعمال التى سيكتسبُها الإنسان منذ الأزل، وهى التى ستُحدِّدُ مصيره، إمَّا من أهل الشقاوة أو من أهل السعادة.

أما القسم الثانى؛ فهو يعود إلى ركن العمل، لأهميته فى تحديد مصير الإنسان. ويمكن تحليل معناه، على أساس «النيَّة» وهى لها شأن عظيم فى مجال الإيمان. فكثير من الأعمال التى تَبْدو خيِّرة .. تكون النيَّةُ فيها غير حسنة. فقد تكون للرياء .. أو لتبادُل المصلحة، أو للوصول إلى هدف دنيوى .. مثل منصب، أو جاه أو غِنَى أو مُتعة .. إلخ. «إنما الأعمال بالنيَّات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبُها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجَرَ إليه» [2]. [رواه البخارى ومسلم عن عمر].

فأعمال هذا الإنسان، تكون فى ظاهرها خيِّرة، لكن فى حقيقتها، التى يعلمها الله، غير خيِّرة .. وغير خالصةً لله. لذلك فإن هذا الشخص، تُفْتَضَحُ أعماله فى نهاية حياته، ويُظهرُها الله، فَيُفْصِحُ عن نِيَّته السَّيِّئة، فَتُخْتَتَمُ حياته بهذه الأعمال السيئة، فيكون مصيره النار.

---

(١) العسقلانى - فتح البارى - ص ٥٩٦.

(٢) النووى - الإمام محيى الدين يحيى بن شرف - الأربعون النووية وشرحها - دار الخلفاء - المنصورة - مصر - ط ١ ص ١٣ - ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م.

وكذلك يمكن أن يحدث العكس. فيكون هناك شخص، تتَّسمُ أعماله بالشرّ، ولكنه فى النهاية، يقف مع نفسه، ويتوب ويندم على ما فعل من سيئات، ويُقلعُ عنها، ويتجه نحو أفْعَال الخير، بنيَّةٍ خالصة لله تعالى؛ فَيُظهرُ الله أعماله الخيِّرة .. وتُخْتَتَمُ حياته بها، فيكون مصيره الجنة. يقول العسقلانى فى شرحه، عن هذا القسم «قوله: (أحدكم أو الرجل لَيَعْمل) (بعمل أهل النار) .. وظاهره أنه يعمل بذلك حقيقة ويُختَمُ له بعكسه، وسيأتى فى حديث سهل بلفظ «لَيَعمْلُ بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس» وهو محمول على المنافق والمرُائى .. قوله: (فيسبق عليه الكتاب .. وفى حديث أنس عند أحمد وصَحَّحه ابن حبان «لا عليكم أن لا تعجبوا بعمل أحد حتى تنظروا بما يُخْتَمُ له، فإن العامل يعمل زمانا من عمره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحوَّل فيعمل عملاً سيئًا» الحديث وفى حديث عائشة عند أحمد مرفوعًا «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وهو مكتوب فى الكتاب الأول من أهل النار [لعلم الله الأزلى السابق بنيَّته السيئة] فإذا كان قَبْل موته تحوَّلَ فعمِل عمل أهل النار فمات فدخلها» الحديث [1]. أى افتضح أمره وأظهر الله ما فى نيَّته السَيئة. «وأمَّا ما قاله عبد الحق فى [كتاب العاقبة] إن سوء الخاتمة لا يَقَعُ لمن استقام باطنه وصَلُحَ ظاهرُه وإنما يقع لِمَنْ فى طَوِيَّته فساد أو ارتياب. ويكثُر وقوعَه للمُصِرِّ على الكبائر والمجترئ على العظائم، فيهجم عليه الموت بغتةً فيصطلمه الشيطان عند تلك الصَّدْمة، فقد يكون ذلك سببًا لسوء الخاتمة» [2].

فَهُنا فى هذا القسم الثانى من الحديث الشريف؛ يكون أمامنا أمْرانْ هامَّان – هما النية، والتوبة.

فمن كانت أعماله حسنةً، ونيَّته خالصة خيِّرة .. اختُتمَتْ حياته بالأعمال

---

(١) العسقلانى – فتح البارى – ص ٥٩٦ – ٥٩٧.

(٢) المرجع السابق – ص ٥٩٨.

الطيبة . . وكان من أهل الجنة . وكذلك إذا ما كانت أعماله سيئة . . ولكنه فى النهاية، تَابَ وأَقْلَع عنها، وسار فى طريق الخير بقلب سليم؛ كان من أهل الجنة . أمَّا من كانت نيته سيئة . . ولو كانت أعماله حسنة (مُراءاة ونفاقًا) . . وأظهر الله أعماله السيئة، سافرةً فى نهاية حياته؛ فسيكون مصيره النار . ومعروفٌ أنَّ مَنْ كانت أعماله سيئة طوال حياته، ومات ولم يَتُبْ . . فسَيلْقى نفس المصير .

ويقول النووى . وهو فى نهاية شرحه للأحاديث المتعلقة بالقضاء والقدر : « هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنَّة فى إثبات القدر وأن جميع الواقعات بقضاء الله تعالى وقَدَرِه خيرها وشَرِّها نَفْعها وضرها . . قال الله تعالى ﴿ **لايُسأَلُ عمَّا يفعل وهم يُسئلون** ﴾ فهو مُلكٌ لله تعالى يفعل ما يشاء ولا اعتراض على المالك فى مُلكه وأن الله تعالى لا علَّة لأفعاله . . وفى هذه الأحاديث النَّهْى عن تَرْك العمل والاتكال على ما سبق من القدرَ، بل تجب الأَعْمال والتكاليف التى ورد الشَّرْعُ بها » (١) .

وهكذا يتضح أن القضاء والقدر، المدوَّن باللوح المحفوظ منذ الأزل؛ لا ينفى العمل والإجتهاد لتحقيق أوامر الله تعالى والانتهاء عمَّا نَهَى عنه، فنحن لا نعلم ما كُتِبَ لنا . . لذا يجب على الإنسان، ألاَّ يحتجَّ بالقدر فى أعماله السيئة . . .

* * *

(١) النووى – صحيح مسلم بشرح النووى – جـ ١٥ ص ١٩٦، ١٩٧ – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان .

التعليـق العـام

بعد كل هذه المناقشات، المتعلقة بجميع أجزاء مشكلة القضاء والقدر؛ يمكن الآن، التحدُّث عن هذه المشكلة، بمفهوم عام. وهذا – بدون شك – مُتعلِّقٌ بكل ما سبق من دراسة فى هذا الموضوع.

فالقضاء والقدر بصفة عامَّة، هو ما ينطبق على الموجودات كلها أى على الوجود بما فيه من نظام وتنسيق، وبما فيه من أنواع مختلفة من المخلوقات .. مثل السماء والأرض، والنجوم والأفلاك والجمادات .. والمياه والحيوانات؛ والإنسان أيضا، فهو .. كجزء من هذا الوجود، يدخل فى نضامِه ونَسَقِه، الذى حدَدَه الله له.

أى أن القضاء والقدر الإلهى، قد حَكَمَ بأن توجد كل هذه الأشياء الموجودة الآن فى الكون .. وبأن يوجد أيضا إنسان ويكون لهذا الإنسان عينان وأذنان و .. إلخ. ويكون أيضا له عقل.

ومن هنا نصل إلى جزء هام جدًّا. فالإنسان إذًا، قد قُدِّرَ له، وقُضِىَ من الله سبحانه وتعالى، أن يوجَد فى هذا الكَوْن – لأنه لم يوجدُ نفسه، ولم يستطع أن يمنع نفسه من الوجود – وقُدِّرَ له أيضا أن يكون ذا لون معين، أو طول مُحدَّد – أى ذو صفات معينة، تختلف من فرد إلى آخر. ولكن .. بعد هذا – أى بعد أن وجدَ الإنسان فى الكون، ثم وصل إلى درجة معينة من النضج العقلى – فمن خُطَّة الله تعالى فى الكون ،.. وضمن قضائِه وقَدَرِه سبحانه؛ أن وضع فى الإنسان عقلاً .. ومنحه إرادة حرَّة ..!

وإلى هنا ينتهى هذا الجزء الإجبارى، الذى هو قضاء الله وقدره .. الذى لا علاقة للإنسان به .. ويسمونه «الجبرية الكونية»؛ ليترك للإنسان – بما وضع له من عقل فوق قمة جسده – جزءاً آخر ليقوم هو به (أى الإنسان) وهذا الجزء

الذى تركه الله للإنسان، هو التصرُّفات والتَحرَكات الجسديَّة، التى يقوم بها العقل متوافقًا مع الإرادة والجسم، طوال فترة حياة كل إنسان ويمكن أن يُطلَقَ عليه « القضاء والقدر الاختيارى أو الكسبى » لأنه مُترتِّبٌ على ما يكتسبه الإنسان من أعمال، باختياره الحر. ذلك لأن الله قَضَى وقَدَّرَ .. قضاءً جبريًا من قبل؛ أن يُعطى للإنسان حرية الإرادة، وحرية الاختيار فى الفِعْل.

فالإنسان فى أعماله الاختيارية، سواء كانت عقلية أو جُسمانية؛ قائم بتصريف ما أنعم الله به عليه من المدارك والقُوَى، فيما خُلقَتْ لأجله. لذلك عرف القوم شُكْر الله على نِعَمِه فقالوا « هو صَرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خُلِقَ لأجله ».

ثم بعد ذلك، يرجع الإنسان مرةً أخرى إلى حظيرة القضاء والقدر الجبرى؛ فإنه مُعَرَّضٌ لأن يبتليه الله بالمصائب والشدائد التى تقع عليه رغمًا عنه، مثل موت حبيب أو فقد مال، أو فشل فى امتحان أو حرب أو زواج .. إلخ، رغم ما يكون الإنسان قد بذله من جهد فى مثل هذه الأعمال التى لم يُوفَّق فيها فهذه كلها « جبريَّة كونية إنسانية ». وقد تكون هذه المصائب والشدائد .. اختيارًا وامتحانًا، ليرى الله أيَصْبُر الإنسان أم يعترض؛ فمن صبر فأجره على الله. فالإيمان الحق - كما قال رسول الله ﷺ هو: (أن تُؤمن بالله وملائكته وكتبه ورُسله واليوم الآخر. وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه) [رواه مسلم] وفى النهاية، فإنه مَقْضِىٌّ على كل ما فى الوجود بالموت والهلاك، ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ [القصص: ٨٨]. وهناك بعد ذلك، الجنة والنار، لمنْ كُتبَ له - جزاء عمله - أن يكون سعيدًا أو أن يكون شقيًّا. وهذا كله، مرتبط بحُرِّية الإرادة فى الأفعال. فكل ما يحدث من الإنسان، فى حياته الدنيا، بإرادته، واختياره .. وهو فى كامل وَعْيه ويقظته، فهو من كَسْبه، وهو مُحاسَبٌ عليه يوم البعث.

وإذا ذهبنا لنحفر وراء تلك النقطعة؛ فإننا نجد أن الله سبحانه، قد أعطى الإنسان، أكبر جزء من العقل .. أعطاه لأىٍّ من مخلوقاته، وأعطاه جزءًا من الحياة

الراقية. وهذه العطاءات كلها، من فَيْض الله، ولهذا كان هذا المخلوق - الإنسان - مُتمتِّعًا بميزات، ليست لأى مخلوق آخر. قال تعالى: ﴿ **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠]

ومن خلال عمل الإنسان الحرّ إذًا، يظهر منه، ما هو خيِّر وما شرِّير. ومن هنا يكون فلانًا من أهل الجنة، وآخر من أهل النار، بناءً على ما تَجمَّع له من أعماله .. خلال فترة حياته كلها .. من الخير أو من الشر؛ والتى تكون معلومَةً لدى الله سبحانه وتعالى، بعلمه الأزلىِّ السابق. ﴿ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ** ﴾ [القمر: ٥٣]

فكل هذا .. قد سَبَقَ به علمه سبحانه، وهو مُدوَّن باللوح المحفوظ، فى الملأ الأعلى، لذا فقد قال الله تعالى، لرسوله نوح عليه السلام، عندما طلب منه أن يُنجِّى ابنه من الغرق؛ أن ابنه هذا «عمل غير صالح». وهذا يعنى أن مجموع أعماله فى الدنيا، كانت غير صالحة، وأن مصيره هو العذاب، وأن الله كان يعلم ذلك منذ الأزل.

إذًا .. فنتيجة هذه الحرية فى العمل الإنسانى، يكون هناك الحساب الذى يفصل فى تلك الأعمال، ويضع كل إنسان فى مكانه الذى يعلمه الله. وليس علم الله بسالب للعمل، - كما سبق ذكره، أو مُلْزِمٌ بأى عمل. فهو علم أزلى محيط، لأعمال الإنسان الحرة.

وهناك نقطة أخرى، أُريدُ فيها أن أُفرِّق بين «الخَلْق» أى خَلْق الله للأفعال الإنسانية. ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ .. بما فيها من خير أو شر؛ وبين الإرادة الإنسانية التى تُنفِّذ وتُحقِّق وتتصرَّف بحرية، فى هذه الأشياء المخلوقة، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ **الله خالق كل شئ** ﴾ فالله خالق الأعمال .. ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ فكما أن الله سبحانه وتعالى، خَلَق أشياء كثيرة، وسخَّرَها للإنسان، يستخدمها فى خلال زمن حياته - كما جاء فى الكثير جدًا من آيات القرآن الكريم؛ فكذلك خَلَقَ الله الأعمال نفسها كأعمال، والحوادث نفسها كحوادث

وحركة. خَلَقَ كل ذلك مُسخَّرًا للإنسان لكن بعد ذلك ينظر ويقيِّم ويحاسبُ .. هل يستخدم الإنسان هذه المخلوقات، أو هذه الموجودات .. أو هذه المُعْطَيات، فى سبيل الخير أم فى سبيل الشر ..؟ .. هل سيختار الخيرَ منها أم الشرِّير ..؟.

وَلْنَضْرِب أمثلةً لبعض المخلوقات التى سَخَّرها الله سبحانه للإنسان .. ويستطيع الإنسان أن يستخدمها تارةً ليُقدِّم بها خيرًا، وتارةً أخرى ليقدم بها شرًّا؛ مثل مكونات القنبلة الذرية .. فهى من الممكن أن تُستَخدم فى السِّلْم، وفى الحروب .. فى إفادة البشر، أو فى الفَتْك بهم وتعذيبهم.

إذًا .. كل شئ مخلوق لله - بقضاء الله وقَدَرِه - ولا مناقشة فى هذا .. ومن ضمن هذه المخلوقات كما تقدم - الإرادة الإنسانية، التى من صميم صفاتها التى حَدَّدَها الله وقَدَّرَها؛ أن تختار بين الأفعال والأشياء. يترك الإنسان هذا .. ويأخذ ذاك؛ ويُحرِّك هذا بطريقة معينة، وآخر بطريقة أخرى. أى يستخدم الحركة التى وهبها الله له،، بإرادته، فالله سبحانه وتعالى قد تَرَكَ للإرادة الإنسانية فجوةً، لكى تتحرَّك فيها.

فهناك فُقَّعةٌ إراديَّةٌ صغيرة، هى إرادة الإنسان، داخل دائرة كبرى ليس لها حدود، هى إرادة الله. فإرادة الإنسان، تتحرك بحرية داخل هذا النطاق المحدود، الذى حدَّدَه الله لها. فالله سبحانه وتعالى، إرادته فاعلة فى كل الأحداث .. ﴿**فعال لما يريد**﴾؛ لكن مع ذلك .. ومع أنها هى التى خَلَقَتْ تلك الإرادة المحدودة الإنسانية، وقدَّرت وجودها؛ فإنها قَدَّرت كذلك أن تترك المجال لها، لتُحقِّق صفة الإرادة فى حدودها المقرَّرة لها من قِبلَ الله تعالى. وهنا نستطيع أن نقول مع القائلين .. من عامَّة المسلمين .. والسلف الصالحين؛ أنه لا فاعل إلا الله .. بهذا المفهوم الذى أصبح واضحًا تمامًا، دون غموض أو تَرَدُّد؛ وأنه لا تحدث طرفة عين ولا لفتة ناظر ولا أى شئ فى الوجود إلا بقضاء وقدر سابقَيْن من الله تعالى. فكل شئ عنده بمقدار وتقدير وقَدَر.

وأخيرًا نتحدث سريعًا عمَّا قيلَ من أفعال الشر، وخَلْق الله لها، بناء على القاعدة العامَّة؛ بأن الله خالق كل شئ. فمن حيث إن الله يخلق الشر .. فإن الله

سبحانه، إذا كان هو خالق كل شئ؛ فإنه يخلق الشرَّ كحَدَث . . لا كشَرّ؛ أما الذى يجعله شرًّا أو خَيْرًا فهو الإنسان. هو الذى يُوجِّه هذا الحَدَث أو هذا الشئ، الذى خلقه الله – كما تقدم – وسَخَّره للإنسان . . فيجعله إمَّا خيراً وإمَّا شَرًّا.

وبناء على ذلك، فالأعمال الخيرة، والأعمال الشرِّيرة، هى نتيجةً لإرادة الإنسان الاختيارية الحرَّة . فالإرادة الخيرِّة تجعل من الأفعال والأخداث، والحركات والأشياء كلها . . أفعالاً خيِّرةً طيبة؛ أما الإرادة الشريرة، فهى تركِّبُ الأشياء والأحداث . . وتحركها نحو الشرّ، فتجعل منها أفعالاً شرِّيرة. لأن هذا من صفات الإرادة . . التى منحها الله إياها – التصرُّف فيما أمامها من أشياء – والله جَلَّ فى عُلاه، ينظر . . ماذا ستكون، نتيجة هذا التصرُّف من الإرادة.

ويُطْرَحُ هذا التساؤل على أبى حنيفة رضى الله عنه: « أَيَقَعُ العصيان بمشيئة الله أم بمشيئة العَبْد . . ؟ ويجيب أبو حنيفة بما أجاب به أعظم علماء عصره . . جعفر الصادق . . « وإنى أقول قولاً متوسطًا . . لا جَبْر، ولا تقويض ولا تسليط. والله تعالى لا يكلف العباد بما لا يطيقون، ولا أراد منهم مالا يعلمون، ولا عاقَبَهُم بما لم يعملوا، ولا رَضىَ لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم. والله يعلم بما نحن فيه . . » [1] وهذه هى نظرية الكسب تمامًا » [2]؛ كما أنها أيضا نظرية الحرية أو حرية الإرادة، التى يعلم الله فيها ما يعمله الإنسان بإرادته الحرَّة التى وهبها إيَّاه .

هذه لمحات حول مشكلة القضاء والقدر؛ لعلها تكون قد أَلْقَتْ الضوء عليها؛ ولعلها تكون قد بَعَثَتْ فى النفس الإنسانية، الارتياح والطمأنينة، وزوَّدَتْ العقل الإنسانى بفكر واضح – يعرف طريقه إلى المصير، وجعلتنا نعرف كيف نحن مسيَّرين، وكيف ومتى نكون مُخيَّرين . . وفوق كل ذى علم عليم.

---

(١) الخط الموجود تحت هذه الجملة، وضعته لتاكيد المعنى المطلوب.

(٢) د. على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ١ ص ٢٦٩ – ط ٤ – دار المعارف بمصر – سنة ١٩٦٦م.

الختـــام

هذه مجموعة صغيرة من الآراء، التى تناولَتْ مشكلة القضاء والقدر. وقد كان التركيز على رأى الفيلسوفَيْن الإسلاميين الكبيرَّيْن: الغزالى، وابن رشد، فى هذا الصَّدَد، واللذَين لم يكن رأيهما قاطعًا فى هذه المشكلة .. رغم أنهما لم يعْترفا بذلك .. كما كان الالتجاء إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، هو الملاذ الآمن والآخير للوصول إلى المفهوم الصحيح، الذى نبحث عنه، لمعرفة الحقيقة فى هذا الأمر.

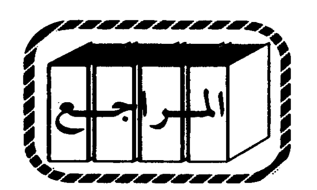
وهذا الموضوع، قد كَثُرَتْ فيه الآراء بدرجة واسعة جدا، فى العصور القديمة والوسيطة والحديثة والمعاصرة. وما زالَتْ الأقلام من وراء العقول، تكتب فى هذه المشكلة حتى يومنا هذا. فليس هناك رأىٌ مُوافَقٌ عليه، حتى من مجموعة من الناس .. يجلسون فى جلْسَةٍ واحدة؛ أمام هذا السؤال: هل الإنسان مُخيرَّ أم مُسيَّر ..؟ .. ولعل هذا يجعلنا نقف خاشعين أمام جبروت الله وقدرته الشاملة؛ ولا يجعلنا نتطاول، ونحن لا نملك إلاَّ عقولاً قاصرة، بجانب واهب العقول والحياة .. بجانب الله الأعظم.

ولا ندرى – أَحَقٌ ومطلوب؛ أو حتى جائز، أن نخوض فى مثل تلك الأمور، التى قد تَفْضى بالبعض منا إلى أفكار غير مؤمنة .. أم أن كل ما يخطر على العقل فلا مانع من الخوض فيه لأن الله لم يفضلنا بالعقل على مخلوقاته الأخرى، إلا لكى يفكر هذا العقل فى كل ما يَعْرِضُ له ..؟ ولعل العقل السليم الذى يفكر بطريقة خالصة، دون أن تَجْتَذبَهُ الانحرافات، وهو لا يدرى؛ يستطيع أن يفكر فى كل ما يمرُّ بالخاطر، دون أن يفقد الإيمان، أو أن يتخلخل أو يتزعزع؛ بل يزداد ثقةً ويقيناً بالله خالقنا.

لذا يجب على كل مَنْ يُبْدى رأيًا فى مثل تلك المشكلات، أن يكون دقيقًا فى تفكيره النقىُّ الخالص .. المرتبط بالإيمان.

﴿ **قلْ إنِّي أخافُ إنْ عصيْتُ ربِّي عذابَ يومٍ عظيمٍ** ﴾ [الأنعام: ١٥]

﴿ **وهو القَاهرُ فوْقَ عباده وهُوَ الْحكيمُ الْخبيرُ** ﴾ [الأنعام: ١٨]



١ – د. محمد أبو زهرة – تاريخ المذاهب الإسلامية – جـ ١ – القاهرة.

٢ – د. علي سامي النشار – نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – جـ ١ – دار المعارف بمصر – سنة ١٩٦٦.

٣ – دائرة المعارف الإسلامية – مجلد ٦ – عدد ٧ – مادة الجبرية.

٤ – التفتازاني – شرح العقائد النسفية – المطبعة الأزهرية – طبعة أولى – سنة ١٩١٣.

٥ – الشهرستاني – الملل والنحل – نشره محمد سيد الكيلاني – طبعة القاهرة . مصطفى البابي الحلبي – جـ ١ سنة ١٩٦١ م.

٦ – البغدادي – الفَرْق بين الفِرَق – القاهرة.

٧ – القاضي عبد الجبار المعتزلي – المغني في أبواب التوحيد والعدل – المجلد السادس (الإراده) – الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة.

٨ – فخر الدين الرازي – اعتقاد فرق المسلمين – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة.

٩ – السنوسي – المقدمة في أصول الدين – نشرة لوسياني بالجزائر – سنة ١٩٠٨م.

١٠ – الجويني – الإرشاد – تحقيق د. محمد يوسف موسى – مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٩٥٠.

١١ – ابن رشد – مناهج الأدلة في عقائد الملّة – القاهرة – سنة ١٩٥٥ م.

١٢ – د. عاطف العراقى – تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية – دار المعارف بمصر – طبعة أولى – ١٩٧٣م.

١٣ – الغزالى – أبو حامد – الأربعين فى أصول الدين – مكتبة الجندى – مصر – سنة ١٩٦٥م.

١٤ – الغزالى – أبو حامد – الاقتصاد فى الاعتقاد – مطبعة صبيح بالأزهر – القاهرة – ١٩٦٢م.

١٥ – ابن رشد – تهافت التهافت – تحقيق سليمان دينا – دار المعارف بمصر – سنة ١٩٦٥م.

١٦ – الغزالى – أبو حامد – تهافت الفلاسفة – المطبعة الإعلامية بمصر – ١٣٠٣ هـ.

١٧ – الغزالى – أبو حامد – إحياء علوم الدين – جـ ١ – مطبعة مصطفى الحلبى بمصر – ١٩٣٩م.

١٨ – محمد يوسف موسى – بين الدين والفلسفة – دار المعارف بمصر – ١٩٥٩م.

١٩ – الشيخ محمد عبده – رسالة التوحيد – مطبعة صبيح – الأزهر – القاهرة – سنة ١٩٦٥م.

٢٠ – ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – مجلدات ١، ٢، ٣، ٤ – دار الحديث – القاهرة سنة ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.

٢١ – ابن رشد – مناهج الأدله فى عقائد الملّة – المكتبة المحمودية بمصر – طبعة ثانية – سنة ١٩٣٥م.

٢٢ – د. محمود قاسم – نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها.

٢٣ – ابن رشد – تفسير ما بعد الطبيعة – المطبعة الكاثوليكية – بيروت – ١٩٥٢م.

٢٤ - أرنست رينان - ابن رشد والرشديَّة - ترجمة عادل زعيتر - مطبعة عيسى البابى الحلبى - القاهرة - سنة ١٩٥٧م.

٢٥ - د. محمود قاسم - الفيلسوف المفترى عليه.

٢٦ - القرآن الكريم .. تنزيل رب العالمين.

٢٧ - الطبرى - ابن جرير - جامع البيان فى تفسير القرآن م ٤ - دار الحديث - القاهرة - ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م.

٢٨ - القرطبى - الجامع لأحكام القرآن - المجلد الثالث - جـ ٤ - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

٢٩ - عبد الكريم الخطيب - التفسير القرآنى للقرآن - الكتاب الثانى - الجزآن الثالث والرابع - دار الفكر العربى - القاهرة.

٣٠ - سيد قطب - فى ظلال القرآن - المجلد الثانى - دار الشروق - القاهرة - ١٤١٨ هـ/١٩٩٧م.

٣١ - الحافظ المنذرى - مختصر صحيح مسلم - الدار الكويتية للطباعة والنشر - دولة الكويت - طبعة أولى - ١٩٦٩م.

٣٢ - العسقلانى - أحمد بن على بن حجر - فتح البارى شرح صحيح البخارى - جـ ١١ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط ١ - ١٤٢٠ هـ ١٩٨٩م.

٣٣ - الإمام محيى الدين يحيى بن شرف النووى - دار الخلفاء - المنصوره - مصر - ط ١ - سنة ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م.

٣٤ - النووى - صحيح مسلم بشرح النووى - جـ ١٥ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

* * *

الفهـرست

رقم الإيداع : ٧٩٢٠ / ٢٠٠٠